أحمد سويلم

الرسول والشعراء

الطبعة الثانية

obeikandl.com

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعاية

دار دلتا للنشر

رئيس مجلس الإدارة

المحاسب

أحمد التلاوى

الناشر

سليمان القلشى

مستشار النشر

أحمد سويلم

الطبعة الثانية
الكتاب : الرسول والشعراء
المؤلف : أحمد سويلم
تصنيف الكتاب : دراسات أدبية
تصميم : إسلام الشماع
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٠٠٠١ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6605 - 15 - 2

العنوان : ٧ شارع الموسيقار على إسماعيل الدقى

التليفون : ٣٣٣٧٨٣١٩ - ٣٣٣٨٧٠٣٩

email : elyoumnew@gamil.com

obeikandl.com

قبل أن تقرأ

كما ترى – عزيزي القارئ – فموضوع هذا الكتاب يركز بصفة أساسية على المشهد الشعري في حياة الرسول (ﷺ) ويتضمن بطبيعة الحال جانبي المشهد:

الشعراء المسلمين.. وشعراء الكفار المشركين.. كما يصاحب أحياناً الشعراء الذين تحولوا من الشرك إلى الإسلام.. ومن الجاهلية إلى العلم والإيمان.

وربما تناول الكثيرون هذا الموضوع حسب اجتهاد كل منهم ونظرته ورؤيته في إطار بحثه.. ومن ثم فإن بعض جوانب هذا المشهد مبثوت في كتب التراث القديم.. وكذلك كتب المحدثين.. لكنها جوانب مقصورة على إبراز بعض الشعراء أو الأفكار دون أن تتميز بالنظرة الشاملة لجوانب هذا المشهد بكافة.

وأحسب أن النظرة الشاملة – أيضاً – لن تتحقق مهما كثر الباحثون واجتهدوا.. ولهذا.. فإن جهدي اليوم يحاول أن يرسم للمشهد ملامحه العامة.. ويحاول أيضا أن يقف أمام بعض العلامات – أو لنقل أكثر العلامات – تأثيراً في تكوين هذه الملامح.

obeikandl.com

إن جهدي اليوم يبدأ من قبل بعثة الرسول (ﷺ) بقليل.. فيقف أمام المجتمع الشعري الجاهلي.. وكيف نظر إلى العقائد السائدة.. وأرَّخ لها.. وناصرها أو تأملها وأنكرها.. ثم نستكمل الرحلة مع بزوغ الإسلام.. ونؤكد موقف الإسلام من الشعر والشعراء.. وكيف اتخذ الرسول من الشعر والشعراء وسائل إعلامية تنافح عن الدعوة.. وترد على هجاء المشركين للدين الجديد وللرسول.

وهو موقف لا يحتاج منا أن ندافع عنه أو نثبته.. بقدر ما نؤكد به ضرورة اعتبار الشعر جزءاً من الثقافة الإسلامية.. فالإسلام هبط فى قوم يقدرون شعراءهم ويعدون الشعر ديوانهم وسجل أيامهم..

هل نقول: إن هدفنا هنا هو تصحيح مفهوم الإسلام للشعر.. ذلك أن أي تغير اجتماعي أو ثقافي أو عقائدي فى المجتمع الجاهلي.. لم يكن يتم أو يحدث كما هو مقدر له بغير إدخال الشعر والشعراء فى منظومة هذا التغيير.. لأنه عصب الثقافة العربية.. ليس فقط فى العصر الجاهلي بل فى العصور التالية عليه كذلك.

وسوف تؤدى بنا هذه الرحلة الشائقة إلى مرافئ زاخرة تروى ظمأ التعطش للمعرفة كلما توقفنا وتأملنا المزيد من العلامات والوقفات.

وتيسيراً للبحث رأينا أن تكون رحلتنا على هذا النحو:

أولا: بحث وتحليل نظرة الإسلام إلى الشعر والشعراء بموضوعية شديدة وبأسانيد وشواهد موثوقة صحيحة.

ثانيا: النظرة إلى المشهد الشعري فى عصر الرسول فى ضوء:

أ. الشعراء المخضرمون الذين عاشوا الجاهلية وكيف استوعبوا تأثيرات الدين الجديد فى أشعارهم.

ب. شعراء أطلق عليهم: شعراء الدعوة الإسلامية وهم على سبيل الحصر «حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة».. وكيف كان دورهم فى نشر العقيدة الجديدة.

ج. طواف آخر بالشواعر اللائي ساهمن بأشعارهن فى هذا المشهد وكذا موقف الخلفاء والصحابة مع الشعر.

د. ما قيل من شعر فى الغزوات باعتبار الشعراء وسائل إعلام لا ينافسهم أحد، وكيف واجه شعراء الإسلام شعراء المشركين.

ولابد أننا فى كل ذلك نعجز عن الإحاطة الكاملة الشاملة.. فسقنا ما رأيناه نموذجاً معبراً عن هدفنا وما نريد أن نؤكده.. كما أننا لم نذكر سوى غزوتي بدر وأحد على ألسنة الشعراء باعتبارهما – أيضاً – نموذجين للفوز والهزيمة.

وأحسب أن هذه الرحلة – على طولها – سوف تقدم ملامح الشعر فى حياة الرسول (ﷺ) كما تقدم موقفه من الشعراء لنخرج بلوحة متعددة الألوان والرؤى..

والله الموفق

أحمد سويلم

obeikandl.com

العرب والشعر

يؤكد الواقع أن الإسلام يمثل نقلة حضارية واجتماعية وثقافية فى المجتمع العربي.. وقد انعكست ملامح هذه النقلة على الشعر.. باعتباره ديوان العرب وسجلاً لحياتهم ووقائعهم..

فقد قامت الحياة العربية قبل الإسلام على نظام القبيلة التى كانت تمثل الوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. وكان شاعر القبيلة هو جهاز إعلامها الوحيد الذى يفاخر بمآثرها.. ويقف مدافعاً عنها أمام شعراء القبائل الأخرى.. ولهذه أطلق على هذه الصورة «العصبية القبيلة».

والعرب تنشد الشعر من المهد إلى اللحد.. ويؤكد ابن قتيبة مهمة الشعر لدى العرب حين يقول: والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف لو أنفد عمره فى التنقير عنهم.. واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال.

ويؤكد ذلك ابن سلام فى (طبقات فحول الشعراء) بقوله:

وللشعر صناعة وثقافة يعزفها أهل العلم كسائر أصناف العلوم والصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد.. ومنها ما يثقفه اللسان..

ويؤكد ابن رشيق في (العمدة) أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهَّنأتها.. وصنعت الأطعمة.. واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس لأنه – الشاعر – حماية لأعراضهم وذبٌ عن أحسابهم وتخليد لذكراهم ومآثرهم..[1].

ولذلك اجتهدٌ مؤرخو الأدب في تناول فن الشعر عند العرب.. ومن أشعر الشعراء؟ ومن أول من قال الشعر؟

وصنفوا الشعراء إلى طبقات.. بل منهم من انتقى قصائد – جاهلية – وصنفها تحت لافتات مثل: المعلقات – المجمهرات – المنتقيات – المذهّبات – المراثي – المشوبات – الملحمات[2].. مما يؤكد فضل الشعر على العرب في عصر لم يكن يعرف التدوين.. معتمداً على السليقة والحافظة المصقولة التي كانت تحفظ القصيدة بمجرد الاستماع إليها وترويها في كل مكان.

ولنا أن نتصور مجتمعاً تنحصر ثقافته في هذا الفن – وإن كان النثر يحتل جانباً من هذه الثقافة – ليصير الشعر أهم وسيلة لنقل الأخبار والمآثر والمفاخر والأيام والحروب.. ومن ثم نظر البعض إلى الشعر نظرة تقديس.. واعتقد البعض بأنه

---

١ - انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٠ - العمدة لابن رشيق ٤٠

٢ - انظر: جمرة أشعار العرب أبو زيد القرشي.

مستمد من أصول دينية ولذا كانوا ينشدونه على موتهم.. أو يتخذونه وسيلة للتقرب إلى الله فى موسم الحج فيلبون بأشعار معينة وهم يطوفون حول الكعبة.

ويذكر أن شعراء المعلقات قد أنشدوا قصائدهم.. وعلقوها فوق أستار الكعبة حتى إذا وفد العرب إليها فى مواسمهم قرءوها وتجادلوا حولها وحملها الرواة فى حلهم وترحالهم على طول الجزيرة العربية..

وارتبط الشعر بالعقيدة السائدة.. وكانت الوثنية هى العقيدة الغالبة لدى العرب قبل الإسلام وكانت أشهر أصنامهم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.. ومن ذلك ما قاله عبد العزى بن وديعة المزني:

إنى حلفتُ يمينَ صدق بَرّةٍ

بمناة عند محل آلِ الخزرجِ

وهذا أوْس بن حَجَر يحلف باللاَّت والعزّى:

وباللاَّت والعزّى ومن دان دينها

وبـــالله إن الله منهنّ أكبرُ

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول:

واللات والـــعـــزى

ومنـــاة الثالثة الأخرى

فإنهن الغرانيق العلى

وإن شفاعتهن لترتجى[٣]

وحينما أفاق بعض الشعراء من كابوس الأوثان أعلنوا ذلك في أشعارهم فهذا زيد بن عمرو يعلن:

تركت اللات والعزىّ جميعا

كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصبورُ

فلا العزّى أدينُ ولا ابنتيْهـا

لنا فى الـدهر إذ حُلمى صغيرُ

لم يترك الشعر الجاهلي شيئاً في حياة العربي إلا سجلها وأشاد بها أو أنكرها.. ولأنه كان الوسيلة الأولي لهذا التسجيل صار القمة الشامخة في جودة أسلوبه وحسن صياغته وسلامة لغته.. مما عده مؤرخو الأدب قدوة للشعراء على مدى العصور بل نستطيع أن نقول مطمئنين إن الشعر الجاهلي كان مؤثراً قوياً في صياغة عقول العرب في العصور التالية.. وتوحيد أعرافهم وعاداتهم وسجاياهم.. وبذلك جعل الشعر للعرب هوية واحدة وحفظ هذه الهوية من الزوال..

---

٣ - كتاب الأصنام للكلبي ١٨- ٢٠.

obeikandl.com

وما دام الشعر الجاهلي قمة الفصحى للغة العرب.. فقد كان طبيعياً أن يرجع مؤرخو اللغة إليه فى فهم لغتهم وتفسير قرآنهم ومعرفة أسلوب القرآن وأحكامه والوقوف على سر بيانه.

وصار من المألوف أن يمثل الشعر ساحة واسعة لشواهد اللغة بعد القرآن الكريم.

من أجل ذلك كله نُظر إلى الشعر فى لغته وأساليبه ومعانيه وفنونه على كونه قدوة وشاهداً على حضارة هذه الأمة.

obeikandl.com

الرسول والشعر

كان أكثر شعراء الجاهلية من الأشراف والسادة والأمراء وأهل الفروسية والحرب والحكمة.. ولهذا كان أكثر أشعارهم فى الحماسة والفخر بمآثرهم.

وكان الشعراء يتركون العنان لشعورهم للتعبير عن تلك المضامين التى يستمدونها من بيئتهم القاسية.. لا يتكلفون فى لباسهم وطعامهم وشرابهم وسائر أمورهم.. ويعبر عن ذلك زهير بن أبي سُلمى بقوله:

وإن أشعر بيت أنت قائله

بيت يُقال إذا أنشدته صدقاَ

هذا الصدق الذى يشير إليه زهير هو الذى منح هذا الشعر امتدادا فى الزمن وفى الوجدان العربي.. حتى عصرنا الراهن.. نعود إليه كلماً بعدت بيننا الشقة وبين الزمن الجميل.. فنقرأ امرأ القيس وعنترة وزهير والأعشي ولبيد.. والشعراء الصعاليك.. وغيرهم من الشعراء الذين أرسوا الملامح الأولي للشعر العربي وللثقافة العربية.

وحينما جاء الإسلام.. جاء بثورة زلزلت كثيراً من قيم المجتمع العربي.. ورؤية جديدة للحياة والعقيدة.. وكان لابد للإسلام أن يتجه إلى العقل فى دعوته إلى الإيمان وترك عبادة الأوثان.. وهو بهذا يستند إلى العقلية العربية التى تثقفت على التفكير والقيم.. بالرغم من تعصبها الأعمى للوثنية.

وكان الرسول الكريم – وهو العربي الذى عاش جانباً كبيراً من حياته يرقي حياة العرب فى الجاهلية – مدركاً قيمة الشعر فى الحياة العربية وقوة تأثيره فى تشكيل الرأي العام والوجدان العام.

وقبل أن ندخل إلى تحليل هذه الرؤية.. يمكننا أن نلقى الضوء على مرحلتين من حياة الرسول فى علاقته بالشعر.. مرحلة ما قبل البعثة ومرحلة ما بعد البعثة والدعوة إلى الإيمان..

الرسول والشعر ما قبل البعثة:

جاء فى البداية والنهاية لابن كثير[٤]: جاء إلى عبد المطلب من يبشره بمولد محمد فأخذه عبد المطلب وحمله إلى البيت وأخذ يطوف به وأحاط به بنوه وهو يقول:

الحمد لله الذى أعطاني

هذا الغلام الطيبَ الأرْدان

قد ساد فى المهْد على الغلمان

أعيذه بالبيت ذى الأركان

---

٤ - البداية والنهاية جـ٢ ص٢٦٤.

حتى أراه بالـغ الـبنيـان

أعيـذه من شر ذى شنآن

من حاسدٍ مضطرب العنانِ

وزاد السهيلي أبياتاً بعد ذلك يذكر فيها القرآن الكريم والمثاني.. وهى بلا شك أبيات منتحلة زيدت فوق هذه الأبيات.. أغفلنا ذكرها..

وجاء فى كتاب (أنباء نجباء الأبناء)[٥] أن عبد المطلب حمل النبي (ﷺ) وهو مولود.. وانطلق به إلى الكعبة فطاف به أسبوعاً – أي كل يوم من أيام الأسبوع – ثم قام عند الملتزم وأنشد يقول:

يا رب كل طائف وهاجد

ورب كل غائبٍ وشاهدِ

أدعوك بالليل الطفوح الراكدِ

لاهمّ فاصرفْ عنه كيد الكائدِ

واحطم به كل عنودٍ ضاهدِ

وانشئْه يا مخلد الأوابدِ

فى سؤدَدٍ راسٍ ووجد صاعد[٦]

---

٥ - تأليف محمد بن ظفر تحقيق إبراهيم يونس، ص٢٦.

٦ - الفوح الراكد: الممتلئ الدائم - لاهم: اللهم - ضاهد: ظالم - الأوابد: الوحوش

وكانت حليمة السعدية – مرضعة الرسول.. عاقلة مدبرة.. أرضعته فكثر رزقها.. وزاد خيرها وكانت ترقصه وتقول:

يا رب إذ أعطيته فأبقهِ

وأعْله إلى العُلا ورقهِ

وادحضْ أباطيل العدا بحقهِ

أما الشيماء – أخته فى الرضاعة – فقد كانت ترقصه بقولها:

يا ربنا أبقِ لنا محمداً

حتى أراه يافعاً وأمردا

ثم أراه سيداً مُسودا

واكبتْ أعاديه معا والحُسدا

وأعطه عزا يسودُ أبدا

وكان أبو عروة الأزدي إذا أنشد هذا يقول: ما أحسن ما أجاب الله دعاءها.. شاهدت أخاها.. محمدا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين سيد العرب والعجم، ويذكر أن المسلمين كانوا قد أسروها سنة ٨هـ ولما عرفها الرسول (ﷺ) بسط لها رداءه وأكرمها وردها إلى قومها[٧].

وهذا اللون من الشعر ينتمي إلى الشعر الشعبي العربي ويطلق عليه كذلك: أغاني المهد أو أغاني الطفولة.. وربما فرق الناس فى

٧ - أشعار الترقيص عند العرب: سعيد الديوه جى - وزارة الإعلام - بغداد ص١٣.

ذلك العصر بين فنين شعريين.. فن ترقيص الصغار – الذين لا يدركون للغة معنى.. لكنهم يحسون النغم والموسيقى.. وما نحا نحوه – وفن الشعر سواء قاله وسمعه الصغار والكبار فى سن مبكرة أو سن كبيرة وهذا موجود بكثرة فى سير الشعراء العرب [٨].

ما نخلص منه فى هذه الوقفة أن الرسول (ﷺ) فى طفولته – كأي طفل مولود – رقص وسعد وضحك ولعب على أنغام الشعر.. وتربت فى وجدانه كما يحدث لأى طفل عربي تلك الحاسة التذوقية للموسيقى والشعر.

وكان للرسول عند جده عبد المطلب مكانة خاصة.. فقد كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة وكان بنوه يجلسون حول فراشه حتى يخرج إليهم.. لا يجلس أحد عليه من بنيه إجلالاً له.. فكان الرسول يأتي وهو غلام فيجلس عليه ويأخذه أعمامه فيؤخروه عنه.. فيقول عبد المطلب – إذا رأي ذلك منهم – دعوا بنى فوالله إن له لشأناً ثم يجلس معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع.. فلما بلغ رسول الله (ﷺ) ثماني سنين مات جده عبد المطلب وكفله عمه أبو طالب.. واصطحب معه الرسول فى رحلته إلى الشام.. وحينما نزلا عند الراهب بحيرى أدرك بفراسته ما سوف يحظي به محمد من مكانة فى قومه.. ثم حدثت حرب الفجار والنبي فى الرابعة عشرة من عمره.. وشهدها النبي وقال: كنت أنبل على أعمامي – أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها –

٨ - أطفالنا فى عيون الشعراء: أحمد سويلم ١١٤.

وقيل فى هذه الحرب شعر كثير – ولابد أنه استمع إليه فى حينه – ومن ذلك ما قاله البراض:

وداهية تهمُّ الناسَ قبلى
شددت لها – بنى بكر – ضلُوعى
هدمتُ بها بيوت بنى كلابٍ
وأرضعتُ الموالىَ بالضروعِ
رفعتُ له بذى طلاَّل كفىّ
فخر يميدُ كالجذعِ الصريعِ

وقال لبيد بن ربيعة:

أبلِّغ – إن عرضت بنى كلاب
وعامر والخطوب لها موالِ
وبلغ – أن عرضت بنى نُميْر
وأخوال القتيل بنى هلالِ
بأن الوافدَ الرحَّالَ أمسى
مقيماً عند تيمنَ ذى طلالِ

وحينما تزوج الرسول بخديجة بنت خويلد.. ذكرت لابن عمها ورقة بن نوفل ما ذكر لها غلامها من قول الراهب.. وما كان منه إذ كان الملكان يظللانه فقال ورقة: لئن كان هذا

حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة.. ثم جعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتى متى.. وأنشد يقول[٩]:

لججتُ وكنتُ فى الذكرى لجوجاً
لهمّ طالما بعثَ النشيجاَ
ووصفً من خديجةَ بعد وصفٍ
فقد طال انتظارى يا خديجاَ
ببطنِ المكّتيْنِ على رجائي
حديثك أن أرى فيه خروجاَ
بما خبرتني من قول قسٍّ
من الرهبانِ أكرهُ أن يعوجاَ

بأن محمداً سيسُود قوماً
ويخصِمُ من يكون له حجيجاَ
ويُظهر فى البلاد ضياءَ نور
يقيم به البريةَ أن تموجاَ
فيلقى من يحاربه خساراً
ويلقى من يسالمه فلوجاَ

٩ - السيرة النبوية لابن هشان جـ١ ص١٩٥.

obeikandl.com

إلى آخر الأشعار التى نسبت إلى ورقة بن نوفل يؤكد بها نبوة محمد (ﷺ).. ولا يمكن أن تسمع خديجة ذلك الشعر وتخفيه على زوجها.. بل كانت هذه الأشعار – أغلب الظن – تبعث الاطمئنان فى نفس خديجة بأن زوجها هو النبي المنتظر..

بعثة الرسول:

ويهبط جبريل على محمد (ﷺ) ويأمره بالقراءة ودعوة الناس إل دين الله.. وتسرع خديجة إلى ابن عمها.. فيبشرها بالبشري الحقيقية ويقول:

فإن يك حقا يا خديجة فاعلمى
حديثك إيانا فأحمدُ مرسلُ
وجبريلُ يأتيه وميكال معهما
من الله وحى يشرح الصدر منزلُ
يفوزُ به من فاز فيها بتوبةٍ
ويشقى بها العانى الغريرُ المضللُ
فسبحان من يهْوى الرياح بأمره
ومن هو فى الأيام ما شاء يفعلُ
ومن عرشُه فوق السماوات كلها
وأقضاؤه فى خلقه لا تُبدلُ

وما يهمنا فى هذه المرحلة هو موقف عمه أبي طالب منه ووقوفه إلى جانبه.

وأخبار ذلك متناثرة فى السيرة.. وفى البداية والنهاية وغيرهما من المصادر ومن ذلك أن الرسول (ﷺ) حينما أمر بإنذار عشيرته الأقربين.. صدع بما أمره الله وذكر آلهتهم الوثنية وعابها.. فشكوه إلى عمه أبي طالب.. لكنه حال بينه وبينهم.. وحين حاول نصيحته قال الرسول (ﷺ) قولته المشهورة: «والله لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته».. فقال له عمه: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشئ أبدا..

وأنشد يقول له:

والله لن يصلوا إليك بجْمعهم
حتى أوسّدَ فى الترابِ دفينا
فامْضِ لأمرك ما عليك غضاضةُ
أبشرْ وقرّ بذاك منك عيونا
ودعوتَنى وعلمتُ أنك ناصحى
فلقد صدقتَ وكنتَ قِدْمَ أميناً
وعرضت دينا قد عرفتُ بأنه
من خير أديان البريةِ دينَا

لولا الملامةُ أو حذارى سُبَة

لـوجـدتنى سمـحاَ بـذاك مبيناَ

وحـاول أبـو طالـب أن يجعـل قومـه يحدبـون علـى ابـن أخيـه فأنشـدهم:

إذا اجْتَمَعتْ يوماً قُريشُ لِمَفْـخرٍ

فعـبدُ مَنافٍ سِرِّها وصَمِيـمُها

فإنْ حُصِّلَتْ أشرافُ عبدِ مَنافِها

فَفي هـاشمٍ أَشْرافُها وقَديمُها

فإنْ فَخرتْ يـومـاً فإنَّ محمَّداً

هـو المُصْطفى مَن سِرُّها وكريُمها

تَداعَتْ قُريشٌ غَثُّها وسَمـينُها

عَلَيْنا فلم تَظْفَرْ وطاشَتْ حُلومُها

ويظـل الوحـي يهبـط.. ويلقـى محمـد (ﷺ) مـن قومـه الأذى والمقاومـة.. فلمـا خشـي أبـو طالـب دهمـاء العـرب أن يعـادوه.. قـال قصيدتـه التـى تعـوذ فيهـا بحـرم مكـة وبمكانـه منهـا.. وفيهـا يقـول داعيـا إلى نصـرة الرسـول (ﷺ).. وهـى قصيـدة طويلـة:

ولما رأيــت الــقــوم لاود فيــهــم
وقد قطعوا كل العري والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى
وقــد طاوعوا أمـر العدو المزايلِ

صبرت لهـــم نفسي بســمراء سمحة
وأبيــض عقب من تراث المقاولِ
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي
وأمســكت من أثوابه بالوصائلِ
أعوذ برب الناس من كل طاعن
علينا بســوء أو ملــح بباطــلِ
كــذبتــم وبيت الله نبــذي محــمــدا
ولما نــطــاعن دونه ونــنــاضــلِ
ونســلــمه حتى نــصــرِّع حــولــه
ونــذهــل عن أبنائنا والحــلائلِ
لقد علــمــوا أن ابننــا لا مــكــذب
لــدينـا ولا يعني بقول الأباطـلِ

فأصبح فينا أحمدٌ في أرومة

يقصر عنها سورة المتطاولِ

حدبتُ بنفسي دونه وحميته

ودافعت عنه بالذرى والكلاكلِ

وإن كان هناك من يشكك في نسبة القصيدة – لعظمتها وقوتها – إلى عم الرسول أبي طالب – لكن المهم هنا أن الشعر كان – كما نري– يسجل تلك المواقف التاريخية– خاصة موقف عمه أبي طالب منه..

وهذا حكيم بني أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي يحاول أن يصرف قومه عما أجمعوا عليه من عداوة الرسول (ﷺ) وكان فيهم شريفاً مطاعا فيقول:

هل قائل قولاً من الحق قاعدٌ

عليه.. وهل غضبان للرشد سامعُ

وهل سيد ترجو العشيرةُ نفعه

لأقصى الموالى والأقارب جامعُ

تبرأتُ إلا وجه من يملك الصبا

وأهجركم ما دام مدلٍ ونازعُ

وأسلم وجهى لـلإله ومنطقى

ولـو راعنى عند الصديق روائعُ

وهذا أبو قيس بن الأسْلَتْ.. وكان محباً لقريش وصهراً لها.. وكان يقيم عندهم السنين بامرأته.. وقد أنشأ قصيدة يعظم فيها الحرمة.. وينهى قريشاً عن الحرب والعداوة.. يقول فيها:

أعيذكمُ بالله من شر صُنْعكمْ

وشر تباغيكم ودس العقاربِ

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة

هى الغولُ للأقصين أو للأقاربِ

تقطع أرحامَا وتهلك أمة

وتبرى السَديف من سنام وغارِ

ألم تعلموا ما كان من حرب داحسٍ

فتعتبروا أو كان من حرب خاطبِ

وحينما لحق عمرو بن مرة الجهنى بالنبي (ﷺ) أعلن إسلامه فى قوله:

شـهـدتُ بأن الله حـقٌّ وأننـى
لآلهـــة الأحـجـار أول تـاركِ
وشمرت عن ساق الإزار مهاجراً
إليك أجوبُ القفرَ بعد الدكادكِ
لأصحب خير الناس نفساً ووالدا
رسـولَ مليكِ الناسِ فوق الحبائكِ

فقال لـه النـبي (ﷺ): مرحبـا بـك يـا عمـرو بـن مـرة.. فقال لـه: ابعثـني إلى قومـي يـا رسـول اللّه.. لعـل اللّه يمـن عليهـم بـى كمـا مـن علـىّ بـك.. فبعثـه النـبي (ﷺ) وقـال: عليـك بالرفـق والقـول السـديد ولا تكـن فظـاً ولا متكـبرا ولا حسـوداً.

ويذكـر صاحـب السيرة.. وكذلـك ابـن كثـير أن المسـلمين حينمـا هاجـروا إلى الحبشـة كانـوا أحـد عشـر رجـلاً وأربـع نسـوة.. وأنهـم انتهـوا إلى البحـر مـا بـين مـاشٍ وراكـب فاستأجروا سـفينة بنصـف دينـار إلى الحبشـة.. وتتابعـت هجـرة المسـلمين حتـى صـار عددهـم ثلاثـة وثمانـون..

وكان مما قيل من الشـعر فى الحبشـة أن عبد اللّه بن الحارث بن قيـس بـن عـدىّ.. حـين اسـتقروا آمنـين هناك جـوار النجاشـي قال:

يا راكباً بـــلـغت عنـى مغـلغـلة
مـن كـــان يرجـو بلاغ الله والدينِ

كـل امـرئ مـن عبـاد الله مضـطهـدٍ

ببطـن مكـة مقـهـورٍ ومفتـونِ

إن وجدنا بلاد الله واسعة

تُنجى من الذل والمخزاة والهونِ

إنا تبعنا رسول الله واطرحوا

قــول النبي وعالـوا فى الموازينِ

وكانـت قريـش قـد أرسـلت إلى النجاشـي رجلـينْ جلديـن بهـدف رد المسـلمين وتسـليمهم وهمـا: عبـد الله بـن أبـي ربيعـة- وعمـرو بن العـاص.. وكانـا محملـينْ بالهدايـا.. وحينمـا علـم بذلـك أبـو طالـب أرسـل إلى النجاشـي يحضـه علـى حسـن الجـوار للمسـلمين قائـلاً:

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفرَّ

وعمرو وأعداءُ العدو الأقاربُ

فهـل نالت افعـال النجـاشىِّ جعفراً

وأصحابه أو عاق ذلك شاغبُ

تعلم - أبيت - اللعن - أنك ماجـدٌ

كريم فلا يشقى لديك المجانبُ

تــعــلــم بـــأن الله زادَكَ بســطــةُ

وأسبـــاب خير كلها بك لاذبُ

وأنك فيض ذو سجالِ غريرةٍ

ينال الأعادى نفعَها والأقاربُ[١٠]

ثم يسلم عمر وحمزة.. ولم تعد الدعوة سراً.. فاجتمعوا وائتمروا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعون شيئاً ولا يبتاعون منهم.. وكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا عليها وعلقوها فى جوف الكعبة.. وكان منصور بن عكرمة هو كاتب الصحيفة ويقال طلحة بن أبي طلحة..

وما يهمنا من هذا الخبر أن بني هاشم وبني عبد المطلب انحازا إلى أبي طالب ودخلوا معه فى شعبه.. وخرج عليهم أبو لهب عبد العزى قائلاً: يعدني محمد أشياء لا أراها يزعم أنها كائنة بعد الموت.. فماذا وضع فى يدي بعد ذلك. ثم ينفخ فى يديه ويقول: تبا لكما.. لا أري فيكما شيئاً مما يقول محمد.. فأنزل الله تعالى قوله: **(تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)** وفى ذلك يقول أبو طالب:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً

نبياً كموسى خُط فى أول الكتْبِ

وأن عليه فى العباد محبة

ولا خير ممن خصَّه الله بالحبِ

---

١٠ - المجانب: الداخل فى الجوار أو الحى- لازب: لاصق .

وأن الذى ألصقتمُ من كتابــكم

لكم كائـن نحساً كراغية السقبِ

أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثــرى

ويصبح من لم يجْن ذنباً كذى الذَنبِ

ولا تتبعوا أمــر الوشاة وتقطعوا

أواصــرنا بعـد المــودة والقــربِ

وترى أم جميـل- حمالـة الحطـب - أبـا بكـر حـين سمعـت مـا نـزل فيهـا وفـى زوجهـا فقالـت: يـا أبـا بكـر أيـن صاحبـك فقـد بلغـني أنـه يهجونـي.. واللّه لـو وجدتـه لضربـت بهـذا الفهـر فـاه.. أمـا واللّه إنـي لشـاعرة ثـم قالـت:

مذمماً عصينا

وأمره أبيْنا

ودينه قلْينا

وحـين مُزقـت الصحيفـة فـى جـوف الكعبـة وبطـل مـا فيهـا قـال أبـو طالـب يمـدح مـن مزقهـا:

جزى الله رهطاً بالحجون تتابعوا
على ملأ يهدى لحزم ويرشدُ
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم
مقاولة بل هم أعزّ وأمجدُ
أعان عليها كل صقر كأنه
إذا ما مشى يرفرف الدرع أحردُ
من الأكرمين من لؤى بن غالبِ
إذا سيم خسفاً وجهه يتربدُ[11]

فعل ذلك أبو طالب على حين بكي حسان بن ثابت – المطعم بن عدي حينما مات ويذكر قيامه فى نقض الصحيفة بقوله:

أيا عين فأبكى سيد القوم واسفحى
بدمع وإن أنزفته فاسكُبى الدماً
وبكى عظيم المُشعرين كليهما
على الناسِ معروفاً له ما تكلماً
فلو كان مجد يُخلدُ الدهر واحداً
من الناس أبقى مجده اليوم «مُطعماً»

١١ - المقاولة: الملوك - رفرف الدرع: ما بقى منه - الأحرد: بطئ السير لما عليه من لبس الحرب.

وتتسع دائرة الإسلام.. ويسلم من المشركين كثيرون.. ومن كان شاعراً منهم يقبل على الرسول معلناً إسلامه بالشعر.. ومنهم مثلاً.. كعب بن زهير فى قصيدته الشهيرة (بانت سعاد).. وعمر بن الجموح الذى يهجو صنمه ويحمد الله الذى أنقذه مما كان فيه من الضلالة والعمى فيقول:

والله لو كنت إلهاً لم تكنْ

أنت وكلب وسط بئر فى قرنْ

أف للقاك إله مستدنْ

الآن فتشناك عن سوء الغبنْ

الحمدُ لله العلىِ ذى المنَن

الواهبِ الرازقِ ديانِ الدينْ(١٢)

هو الذى أنقذنى من أَنْ

أكون فى ظلمة قبر مرتهنْ

بأحمدَ المهدىِ النبى المرتهن

وهذا أبو قيس بن أنس وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة.. وهمّ بالنصرانية ثم أمسك عنها.. وأعلن أنه يعبد إله إبراهيم.. حتى قدم

١٢ - القرن: الحبل - مستدن: مستبعد - الغبن: السفه.

obeikandl.com

الرسول (ﷺ) فأسلم وحسن إسلامه وكان شيخاً كبيراً فقال:

يقول أبو قيس وأصبح غاديا

ألا ما استطعتم من وصاتِى فافعلواُ

فأوصيكمُ بالله والبر والتُقى

وأعراضكم . . والبرُ بالله أولُ

وإن قومكم سادُوا فلا تحسِدنْهم

وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلُوا

ويقول أيضا:

ونعلم أن الله لا شئ غيره

ونعلم أن الله أفضلُ هادياً

نعادى الذى عادى من الناس كلهم

جميعاً وإن كان الحبيبَ المصافياً

فوالله ما يدرى الفتى كيف يتقى

إذا هو لم يجعل من الله واقيا

ولما أسلم النساء وهاجرن مع أزواجهن إلى المدينة.. ذكر ذلك الشعراء فى قصائدهم: فهذا أبو أحمد بن جحش يذكر هجرة أمه فى قوله:

obeikandl.com

لما رأتنى أم أحمد غاديا

بذمة من أخشى بغيب وأرهبُ

تقول : فإما كنت لابد فاعلاً

فيممَ بنا البلدانَ ولتنأ يثربُ

فقلتُ لها بل يثربُ اليوم وجهنا

وما يشأ الرحمان فالعبدُ يركبُ

إلى الله وجهى والرسول ومن يقم

إلى الله يوماً وجهه لا يخيْبُ

ونتوقف عند هذه النماذج التى قصدنا بها سيادة الشعر فى التعبير عن مشاعر الإنسان العربي أمام أي موقف أو قضية..

ولابد أن القارئ يشاركني الدهشة لموقف أبي طالب من الإسلام بالرغم من أن لسانه يبدو مؤمناً بخلاف قلبه.. وأن ما يقوله وما يتخذه من المواقف لحماية الرسول (ﷺ) وصحبه إنما هو ترجمة حقيقية لقيم الإسلام وكم كان الرسول (ﷺ) يتمني لو أن أبا طالب يدخل فى الإسلام.. والغريب أن أبا طالب يعترف بعدم قدرته على ذلك خوف (السَبة) على حد تعبيره أي الإحساس بالعار والنقص أمام قريش التى يسودها.

ولابد أن ما قيل من أشعار فى تلك الفترة – قبل أن يهبط الوحي بذم الشعراء المشركين – قد وصلت إلى أسماع الرسول

وأعجب بها.. وهناك من الشواهد التى تؤكد قدرة الرسول على تذوق الشعر ونقده.. وما كان يمكنه (ﷺ) أن يتخلي عن هذه القدرة التى كانت سائدة فى مجتمع يعشق الشعر ويتخذه دليلاً على ثقافة الناس.

موقف الرسول من الشعر والشعراء:

أحسب أننا بعد هذه الرحلة خلال علامات شعرية تتصل بالعقيدة الإسلامية.. يمكننا أن نضع يدنا على موقف الرسول من الشعر.. ونصحح مفهوماً ساد بين بعض المؤرخين أن الإسلام يذم الشعر والشعراء.

جاء فى (جمهرة أشعار العرب) للقرشي فى باب (النبي والشعر) قوله: ولم يزل النبي (ﷺ) يعجبه الشعر ويمدح به فيثيب عليه ويقول: هو ديوان العرب..

وهو القائل: إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا..

ويقول أيضاً: الشعر كلام من كلام العرب جزل.. تتكلم به فى نواديها وتسلّ به الضغائن بينها.

ويقول كذلك: إنما الشعر كلام مؤلف.. فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه.

وكأن القضية هنا تتصل بما يتناوله الشعراء من المعاني والأغراض.. وليست فى الشعر ذاته لأنه سلاح ذو حدين.

وحينما قال الرسول: إن من الشعر الحكمة.. كان تعليقاً على أبيات العلاء بن الحضرمي التى يقول فيها:

وحىّ ذوى الأضغان تسْبِ قلوبهم

تحيتك الحسنى فقد يرقع النَعلْ

فإن دحسُوا بالكره فاعف مكرماً

وإن أخنسُوا عنك الحديث فلا تسَلْ

فإن الذى يؤذيك منه استماعُه

وإن الذى قالوا وراءَك لم يُقلْ

وفى تعليق الرسول إعجاب بحكمة الشاعر.. وتوضيح لتأثير الشعر فى النفوس.. حينما يقول إن من الشعر الحكمة.

وجاء فى لسان العرب فى مادة: شعر – رواية أخرى للحديث على هذا النحو: إن من الشعر لحكمة.. فإذا ألبس عليكم شئ من القرآن فالمسوه فى الشعر فإنه عربي.

وروى الترمذي عن جابر بن سمرة قال:

جالست النبي (ﷺ) أكثر من مائة مرة.. فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم.

ويذكر أن الرسول (ﷺ) كان يضع لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد يقوم عليه وينشد الشعر..

وفى أخبار النابغة الجعدى بالأغاني أنه أنشد النبي (ﷺ) قوله:

بلغنا السماء مجدُنا وجدودنُا

وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فأعجب بهذا القول وقال: فأين المظهر يا أبا ليلي..

فقال: الجنة بك يا رسول الله.. قال: نعم إن شاء الله.. فقضى له بالجنة بسبب شعره.

وحينما اشتد هجاء المشركين له.. دعا حسان إلى هجائهم وقال له: اهجهم ومعك روح القدس.. وأوصاه أن يعود إلى أبي بكر ليعرف الأنساب ويستخدم ذلك فى أشعاره.

ولما أنشده كعب بن زهر قصيدته (بانت سعاد) لم ينكر عليه استهلال القصيدة بالغزل.. ولما وصل إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به

مهنَّد من سيوفِ الهند مسلولُ

قال له: من سيوف الله.. فأصلحها كعب..

وأنشد أحدهم النبي (ﷺ) قول سحيم عبْد بنى الحسحاس:

الحمد لله لا انقطاع له

فليس إحسانه عنا بمقطوع

فقال: أحسن وصدق.. وإن الله ليشكر مثل هذا.. وإن سدَّد وقارب إنه لمن أهل الجنة..

ولم يقتصر تذوق النبي (ﷺ) لشعر المسلمين.. بل كان يستحسن أيضاً أشعار الجاهليين.. ومن ذلك قوله: أصدق كلمة قالها لبيد: ألا كل شئ ما خلا الله باطل.

وكان يعجب بشعر عنترة فى قوله:

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُه

حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

وكان يقول: ما وُصف لي أعرابي قط فأحببتُ أن أراه إلا عنترة.

وعندما ذكر له أمية بن أبي الصلْت:

زحلٌ وثورٌ تحت رجْل يمينه

والنِّسْرُ للأخرى وليثٌ يرصدُ

قال: صدق.. هكذا صفة العرش.

كما وافق الرسول (ﷺ) أن ينظم الشعراء مواعظه وأحاديثه شعراً تسهيلاً لحفظها.. وكثيراً ما استأذنه الشعراء فى ذلك فأذن لهم واستمع إلى أشعارهم بعد نظمها.

ويروى أن قيس بن عاصم وفدمع جماعة من بني تميم.. فدخل على الرسول (ﷺ) وعدده الصلصال بن الدلهمس.. فقال: يا رسول الله عظنا عظة ننتفع بها.. فوعظهم موعظة حسنة..

فقال قبس: أحب أن يكون هذا الكلام أبياتاً من الشعر نفتخر به على من يلينا وندخرها نعلمها أولادنا.. فأمر الرسول بمن يأتيه بحسان.

وهنا قال الصلصال: يا رسول الله قد حضرتني أبيات أحسبها توافق ما أراد قيس.. قال: هاتها.. فقال:

تجنّبْ خليطاً من مقالك إنما
قرينُ الفتى في القبرِ ما كان يَفْعَلُ
ولابد بعد الموت من أن تْعِدَّه
ليوم ينادى المرءُ فيه فيُقبلُ
وإن كنت مشغولاً بشيءٍ فلا تكنْ
بغير الذى يرضى به الله تشغلُ
ولن يصحبَ الإنسان من قبل موته
ومن بعده إلا الذى كان يعملُ
ألا إنما الإنسان ضيفٌ لأهله
يقيم قليلاَ بينهم ثم يرحلُ

فأعجب بهذه الأبيات..

ومن الأخبار الطريفة أن ولداً جاء الرسول (ﷺ) يشكو أباه في مالٍ له فأنشده الأب أبياتاً قالها في ابنه وهي:

غَذَوْتُكَ مولوداً وَعْلتُكَ يافعاً
تُعَلُّ بما أحنو عليك وتَنْهَلُ
إذا ليلةٌ نابَتْكَ بالشَّكْوِ لم أَبِتْ
لسُقمكَ إلا ساهراً أَتَمَلْمَلُ
تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عليكَ وإنها
لتَعلمُ أن الموتَ حتمٌ مؤجّلُ
كأني أنا المطروقُ دونَكَ بالذي
طُرِقْتَ به دوني فعينيَ تَهْمِلُ
فلما بَلَغْتَ السِّنَّ والغايةَ التي
إليها مَدَى ما كُنْت فيكَ أُؤَمِّلُ
جَعَلْتَ جزائي منكَ جَبْهاً وغِلْظةً
كأنكَ أنتَ المنعِمُ المتفضِّلُ
فليتكَ إذ لم تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتي
فَعَلْتَ-كما الجارُ المجاوِرُ يفعلُ

فبكى الرسول (ﷺ) ثم أخذ بتلابيب ابنه وقال له: اذهب فأنت ومالُك لأبيك.

وقدم عمرو بن سليم الخزاعي على الرسول (ﷺ).. وكانت خزاعة حلفاء له.. فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا

على حي خزاعة يقال له: بنو كعب.. فقتلوا فيهم.. وأخذوا أموالهم.. فقدم عمرو مستنصراً يقول:

يا رب إني ناشدٌ محمدا

حلف أبينا وأبيه الأتلدِا

نحن ولدناهم فكانوا ولداَ

ثمتَ أسْلمنا فلم ننزعُ يدَا

إن قريشًا أخلفوك الموعدَا

ونقضوا ميثاقَك المؤكدَا

وقتلونا رُكعًا وسُجَدا

وزعموا أن لست تدعُو أحدَا

وهم أذل وأقل عددا

فانصر هداك الله نصرا أيدَا

وادع عباد الله يأتوا مددا

فيه رسول الله قد تجردَا

فدمعت عينا رسول الله (ﷺ) ونظر إلى سحابة وقال: والذي بعثني بالحق نبياً إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب وخرج بمن معه لنصرهم[١٣]

١٣ - الجمهرة ص٣٣.

وحينما دخل الرسول (ﷺ) مكة فى عمرة القضاء.. أذن لابن رواحه أن يمشي بين يديه وينشد..

خلوا بنى الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيلُ الهام عن مقيله

ويُذهلُ الخليلَ عن خليلهِ

فقال عمر: يا ابن رواحه.. بين يدي رسول الله (ﷺ) وفى حرم الله تقول الشعر! فقال رسول الله: خلَ عنه يا عمر. فهو أسرع فيهم من نضْج النِّبل.

وبعد وفاة الرسول (ﷺ) مر عمر بالمسجد فوجد حسان ينشد فيه.. فأنكر عليه عمر.. فقال حسان:

لقد كنت أنشد فيه.. وفيه من هو خير منك.

ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله.. أسمعت رسول الله (ﷺ) يقول: أجب عنى.. اللهم أيده بروح القدس.. فقال: نعم!.

ذلك طرف من مواقف كثيرة تدل على أن الرسول (ﷺ) لم يكن بعيداً عن الثقافة العربية السائدة المتمثلة فى تذوق الشعر وتقدير مكانته وما كان له أن ينكر ذلك أو يجنب فنا جميلاً تفخر به العرب وتنفرد به بين الحضارات المتاخمة.

وحينما يري الرسول في الشعر – ديوان العرب– أو ينظر إليه على أنه حكمة وجمالاً وسحراً.. فإنما هو يعترف بتأثير هذا الفن فى الشعور الإنساني وما كان له أيضاً أن ينكر هذا الجمال وهذا السحر.. وهو الرسول الذى يحمل فى داخله جمال الخلق.. وجمال النفس.. وحنان الأب.. وعذوبة المعشر.

نظر الرسول (ﷺ) إلى الشعر إذن على أنه قيمة إنسانية فنية يمكنها أن تساعد فى إذكاء الروح.. وطهارة النفس.. وإصلاح المجتمع ونشر القيم.. فاستعذب إنشاده وشجع عليه.. وجعله سلاحاً من أسلحة محاربة المشركين.. ونوعاً من أنواع الجهاد فى سبيل الله.. وأحياناً نظر إليه على أنه أوقع من السيف والنبل..

لكن الرسول نفسه لم يكن شاعراً.. وهذا لا يقلل من قدر أي إنسان فما كان العرب كلهم شعراء..

لقد نشأ الرسول فى مجتمع لم يكن متزمتاً مع الشعراء.. بل كان سعيداً بهم.. بل كانت القبيلة التى تخلو من الشعراء.. قبيلة ضعيفة مهملة فى طي النسيان.. لأنها تفقد لسانها.

لكن هذا المجتمع نفسه كان يقدر الفصاحة والبلاغة حتى لو جاءت نثراً.. وقد عرف المجتمع الجاهلي عدداً من الفصحاء والبلغاء ولم يكونوا شعراء مثل أكثم بن صيفي وغيره.. مما يؤكد احتفاء المجتمع بكل ما يحمل قيم اللغة العربية.

وقد تجلت فصاحة الرسول (ﷺ) فى أقواله وخطبه.. ولم يكن راوية ولا يتمتع بحافظة شعرية.. ولم يكن ينشد بيتاً

واحداً من الشعر تاماً على وزنه وربما أنشد صدر البيت أو عجزه فحسب.. ومن ذلك أنه كان يقول: أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

ثم يسكت عن عجز البيت

وعن عائشة.. إنه كان يتمثل من الشعر ببيت طرفة بن العبد هكذا:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله..

فيقول الرسول: إني لست بشاعر.. ولا ينبغي لي..

وجاء عباس بن مرداس رسول الله (ﷺ) فقال له: أنت القائل:

فأصبح نهْبى ونهبُ العبيد

بين الأقـــرع وعـيـيـنـة

فقال أبو بكر: أشهد إنك كما قال الله: وما علمناه الشعر وما ينبغي..

ويذكر المؤرخون أنه لم يجر على لسانه (ﷺ) مما صح وزنه إلا البيت من الرجز المنهوك والمشطور – كما جاء فى البخاري – وهو:

أنا النبىَ لا كــذبْ

أنا ابنُ عبدِ المطـلبْ

ربمـا لأن الرجـز فـى أصلـه ليـس شـعراً.. وإنمـا هـو أقـرب إلى السـمع ومنزلتـه بـين الشـعر والنثـر.. حتـى إن الخليـل لم يعـد المشـطور منـه شـعرا..

أمـا أصحـاب الرسـول (ﷺ) فيقـول المفضـل الضبـىّ عنهـم: ولم يبـق أحـد مـن أصحـاب رسـول الله إلا وقـد قـال الشـعر وتمثـل بـه. ونجـد شـعر الصحابـة مبثوثـاً فـى كتـب الـتراث مثـل العمـدة والسـيرة وجمهـرة أشـعار العـرب وغيرهـا..

مـن هنـا فحينمـا هبـط الوحـي علـى الرسـول وسمعـه العـرب.. تولتهـم حـيرة شـديدة.. وشـغلوا أنفسـهم بتصنيـف ذلـك الوحـي.. وهـل هـو شـعر أم نثـر.. وهـل محمـد شـاعر أم سـاحر أم كاهـن ومـا إذا كان هـذا كلام بشـر أو كلام غـير البشـر.. وهـل الـذى يوحـي إلى الرسـول إنـس أو جـن.. إلى آخـر هـذه الأسـئلة التـى أربكـت عقولهـم وأصابتهـم بالحـيرة والدهشـة معـا..

ويذكـر ابـن هشـام أن الوليـد بـن المغـيرة كان قـد اجتمـع إليه نفر مـن قريـش.. وكان ذا سـنّ فيهـم.. وقـد حضـر الموسـم فقـال لهـم:

— يـا معشـر قريـش إنـه قـد حضـر الموسـم هـذا وإن وفـود العـرب سـتقدم عليكـم فيـه وقـد سمعـوا بأمـر صاحبكـم هـذا.. فأجمعـوا فيـه رأيـاً واحـداً ولا تختلفـوا فيكـذب بعضكـم بعضـاً.. ويـرد قولكـم بعضـه بعضـاَ.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس.. فقل لنا وأقم رأيا نقول به.

قال: بل أنتم فقولوا.. أسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن.. لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن [١٤] ولا سجعه.

قالوا: فنقول مجنون.

قال: ما هو بمجنون.. لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالُجه ولا وسوسته.

قالوا: نقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر.. لقد عرفنا الشعر رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر

قال: ما هو بساحر.. لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة.. وإن أصله لغدق (رطب حلو المذاق) وأن فرعه لجناه.. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء وعشيرته.!.

---

١٤ - الزمزمة: الكلام الخفي المهموس.

obeikandl.com

فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ولا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره.. فنزل الوحي في الوليد بن المغيرة:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا*وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا*وَبَنِينَ شُهُودًا*وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا*ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ*كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا*سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا*إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ*فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ*ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ نَظَرَ*ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ*ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ*فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ*إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر آية: ١١-٢٥]

لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين في أمة عربية فصيحة اللسان.. ديوانهم الشعر.. فانبهر العرب ببيانه.. وأذهلتهم بلاغته وفصاحته.

والغريب أن بعض المتعصبين حينما قرأوا الآيات التي تتصل بالشعر والشعراء أطلقوا أحكاما جاهلة مفادها أن الإسلام يحارب الشعر على الإطلاق.. ومن ثم حدث لبس شديد في الفهم فظن الناس أن القرآن قد عادي هذا الفن وقائليه.

لقد تأمل العرب أسلوب القرآن الكريم فوجدوه معجزاً في حسن تأليفه.. والتئام كلماته.. وفصاحته.. ووجوب إيجازه.. وبلاغته الخارقة.. ومن ثم حاروا في تسميته.. فهو مخالف لأساليب كلام العرب شعراً ونثراً.. ويعبر الجاحظ عن ذلك في رسائله بقوله:

«لأن رجلًا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة.. لتبين في نظامها

ومخارجها.. وفى لفظها وطبعها.. أنه عاجز عن مثلها.. ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها.. وليس ذلك فى الحرف والحرفين.. والكلمة والكلمتين..»

ولو تتبعنا لفظة الشعر أو الشعراء.. أو الشاعر.. فى القرآن الكريم لوجدنا أنها وردت فى ستة مواضع.. يحكى القرآن فى خمسة منها ما حاول المشركين إلصاقه برسول الله (ﷺ) من صفات كاذبة.. والقرآن يؤكد لهم أن الرسول (ﷺ) ليس بشاعر مثل شعرائهم.. ولا عُلم الشعر.. وربما لم يذكر القرآن لفظ (شعر) إلا فى آية واحدة فى سورة ياسين ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾.

والمتأمل فى آيات القرآن:

١. ﴿**بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ**﴾ [الأنبياء٥]

٢. ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**﴾ [الشعراء٢٢٤]

٣. ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**﴾ [ياسين٦٩]

٤. ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ إِلَٰهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾ [الصافات٣٦]

٥. ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾ [الطور٣٠]

٦. ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ**﴾ [الحاقة٤١]

المتأمل فى هذه الآيات يجد أنها لا تتحدث عن الشعر فى حد ذاته.. ومعظمها ينفي عن الرسول (ﷺ) صفة الشاعر.. وأنه رسول يأتي بشئ غير الشعر المألوف المعروف عند العرب..

ويعبر عن أمور تختلف عما يعبر به الشعراء.. ويؤكد القرآن معرفة البشر وظنونهم فى الذين يمارسون الشعر باعتباره فنا فيه مس الجنون.. وتلك الحقائق لو لصقت بصاحب الرسالة الإلهية تتناقض تماماً مع جوهر الرسالة والوحي.. كما أنه معروف أيضاً عن شعراء الجاهلية إسرافهم فى اللهو والملذات المادية وشرب الخمر وذكر ذلك كله فى أشعارهم فى موضع الفخر.. وكل هذه الأمور مخالفة تماماً لرسالة محمد (ﷺ) (إن هو إلا ذكر وقرآن كريم).

ومن ثم فنفي الشعر عن الرسول (ﷺ) ليس من قبيل كون الشعر شراً أو أمراً غير مستحب.. ولكن لأن الشعر الذى ساد وقتئذ لا يجوز أن يكون هو أسلوب الرسالة فلينشد الشعراء ما يشاءون.. ولابد أن الشاعر الذى يعلن إسلامه سوف يعبر عن هذه النقلة النوعية فى أسلوب تعبيره من خلال القيم الجديدة التى تتناسب مع الرسالة الجديدة.

نخلص من هذا أن آيات القرآن الكريم لا تأمر المسلمين بالكف عن الشعر وأن الرسول (ﷺ) – بالرغم من كونه ليس شاعراً – كان يشجع الشعراء وينتقدهم.. ويدلي برأيه فى أشعارهم ويحضّهم على الرد على المشركين – كما سوف نري– ويقيم لحسان منبراً فى المسجد لينشد شعره.. والمسجد خصص للعبادة.. فإذا أضيف إليه قول الشعر.. فإنما ينفي كل ظن بحرمة قول الشعر.. ويستمع لكعب بن زهير فى (بانت سعاد) بادئا إياها بالغزل.. ولم ينكر ذلك.. و.. مما يؤكد موقف

الرسول والإسلام من قول الشعر.. وإبداعه.. والاستماع إليه والتقاط الشواهد اللغوية منه باعتباره الفن (الثقافي واللغوي) عند العرب بعد الإعجاز الأسلوبي القرآني.. وحسبنا أن نسوق هنا كيف وصف ابن خلدون القرآن في مقدمته.. فقال( ): «وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين (الشعر والنثر) وليس يسمى مرسلا مطلقاً ولا مسجعاً بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثني من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية.. وهو معنى قوله: **نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾** [الزمر٢٣]

وقال: **﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾** [الأنعام٩٧]

ويسمى آخر الآيات فواصل إذ ليست أسجاعاً ولا التزام فيها ما يلزم في السجع ولا هي قواف.. وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن فيها كالنجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني..... الخ.

.....

وأحسب أنه وصف لا يقترب من ساحة الشعر وقتئذ.. ولا من ساحة النثر الفني كذلك.. ولهذا نفي عنه أسلوب الشعر.

المشهد الشعري فى صدر الإسلام

جاء فى مقدمة ابن خلدون:

إن الشعر ديوان العرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم.

ثم يقول: ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه.. فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زماناً.. ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي فى تحريم الشعر وخطره.. وسمعه النبي (ﷺ) وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه.

على أن ابن خلدون نفسه.. يفضل فى موضع آخر [١٥] شعر الإسلاميين على شعر الجاهلين فى حوار بينه وبين أبي عبد الله بن الخطيب وزير الملوك والأندلس من بني الأحمر.. يقول:

ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر.. وهو إعطاء السبب فى أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلين فى منثورهم ومنظومهم..

---

١٥ - المقدمة ٢٦٢-٢٦٣.

obeikandl.com

فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونُصيب

والأحوص وبشار.. ثم كلام السَّلف من العرب فى الدولة الأموية وصدراً من الدولة العباسية فى خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة فى البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد ومن كلام الجاهلية.. فى منثورهم ومحاوراتهم.. والطبع السليم.. والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما لكونهما ولجت فى قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم فنهضت طباعهم.. وارتقت ملكاتهم فى البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية..

ففي الفقرة الأولي يعتقد ابن خلدون.. مع من يعتقدون أن الشعر قد ضعف وخبت جذوته بظهور الإسلام لأن الشعراء فوجئوا بأسلوب القرآن.. فوجدوا أنهم يملكون أسلوباً أضأل كثيراً من هذا الأسلوب.. فعزف الشعراء عن ذلك الفن الذى طالما استأثر باهتمامهم وحبهم.

وفى الفقرة الأخرى يؤكد ابن خلدون علو الطبقة البلاغية لدي الشعراء الإسلاميين لاستفادتهم من أسلوب القرآن والحديث.

وقد اختلف كثير من المؤرخين حول هذه القضية.. ويمكننا القول أن قيماً جديدة بدأت تدخل إلى المجتمع بدخول الإسلام..

وانعكس ذلك على الشعر.. ولأن الشعراء كانوا يستلهمون فى أشعارهم تلك القيم والمعانى الإسلامية الجديدة.. فقد ظن الكثيرون أن الشعراء إنما يريدون محاكاة الأسلوب القرآنى فعجزوا عن ذلك وضعف شعرهم.

لكن الإنصاف يقضي بنا أن نؤكد ثراء المشهد الشعري بظهور القرآن.. والذى كان فى أحد جوانبه تلك المناقضات والمبارزات الشعرية بين شعراء مسلمين وشعراء مشركين.. ولا شك أن هذا الشكل من الشعر يجاهد كل فريق من شعرائه بإفحام الفريق الآخر والتفوق عليه بلاغياً وشعرياً.. فمن أين يضعف الشعر وفى عنقه مسئولية الدفاع (البلاغي)أو الهجاء (البلاغي).

ولكي نحيط بهذا المشهد الشعري فنحن أمام ثلاث جماعات من الشعراء.

١. شعراء مخضرمون عاشوا الجاهلية والإسلام.. واستوعبوا تأثيرات الدين الجديد فى أشعارهم.

٢. شعراء أطلق عليهم – شعراء الدعوة الإسلامية – وهم الذين وقفوا ينافحون عن الإسلام ويردون على هجاء المشركين.. وهم: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك.

٣. شعراء أنطقتهم الغزوات.. وربما لم يكن لبعض منهم عهد بالشعر من قبل.

وسوف نتناول كل فريق من هؤلاء الشعراء على حدة لنتعرف على تأثير الإسلام فى أشعارهم.. وموقف الرسول منهم.

أولا: الشعراء المخضرمون:

يطلق مصطلح – الشعراء المخضرمون – على هؤلاء الشعراء الذين عاشوا الجاهلية وكان شعرهم يعبر بصدق عن المناخ الثقافي والاجتماعي فى البيئة العربية ثم عمروا وعاشوا صدر الإسلام وربما لعصور بعده.. فنفذ الدين إلى نفوسهم الشفافة وواكبوا العقيدة الجديدة وتأثروا بها.. ووضح ذلك فى أشعارهم..

والخضرمة فى اللغة لها أكثر من معنى.

فبئر خِضرم: أي كثيرة الماء.. وماء مخضَرم: كثير

وناقة مخضرمَة: قطع طرف أذنها وهى سمة الجاهلية.

والمخضرمة من النوق والشاء.. المقطوعة نصف الأذن.

وكان الناس فى الجاهلية يخضرمون إبلهم فلما جاء الإسلام أمرهم النبي (ﷺ) أن يخضرموا من غير الموضع الذى يخضرم منه أهل الجاهلية.

وأصل الخضرمة أن يجعل الشئ بين بين.. ومنه قيل لكل من أدرك الجاهلية والإسلام: مخضرم.. لأنه أدرك الخضرمتين الجاهلية والإسلامية.

ورجل مخضرِم: إذا كان نصف عمره فى الجاهلية ونصفه فى الإسلام.

وتأويل مخضرم عند البعض أنه قطع عن الكفر بالإسلام [١٦].

١٦ - لسان العرب مادة خضرم.

obeikandl.com

ومن ثم يطلق – الشعراء المخضرمون – على هؤلاء الشعراء الذين عاشوا الجاهلية والإسلام.. ومنهم:

١. لبيد بن ربيعة:

وهو أحد شعراء الجاهلية المعدودين.. وأشرف الشعراء المجيدين الفرسان المعمرين.. وفد على الرسول (ﷺ) فى وفد من بنى كلاب – بعد وفاة أخيه أربد – وعامرين الطفيل.. فأسلم وهاجر وحسن إسلامه.. ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب.. ويقال إنه مات فى خلافة معاوية.

وما يعنينا حينما نتناول شعر لبيد أن نفرق بين شعره الجاهلي وشعره الإسلامي وهذا الأمر اختلف فيه كثيرون.. وهناك دراسات معمقة اجتهد أصحابها فى إبراز ملامح كلا الجانبين من شعره [١٧].

ولا يكاد شعره الجاهلي يخرج عن تلك الأغراض السائدة مثل المديح والهجاء والفخر.. وقد كان شديد الفخر بآبائه وأجداده.. ويتجلي ذلك فى معلقته الشهيرة بعد أن يصف الديار والأطلال البالية:

إنّا إذا التقتِ المجَامِعُ لم يَزَلْ

منّا لِزَازُ عظيمة جَشّامُها

---

١٧ - انظر: العصر الإسلامي شوقى ضيف - لبيد: د. يحيي الجبوري - الأغاني للاصفهاني - الإسلام والشعر: د. سامي العاني.

وَمُقَسِّمٌ يُعْطِي العشيرةَ حَقَّــهَا
وَمُغَــذْمِرٌ لحقوقِها هَضَّامُها
فضلاً وذو كرمٍ يعينُ على النَّدى
سمحٌ كسُوبُ رغائبٍ غنّامُها
مِنْ معـشـرٍ سنَّتْ لــه آباؤهُـمْ
ولــكـلِّ قـومٍ سُنَّةٌ وإمامُهَا
لا يَـطبَعونَ وَلا يَبورُ فَعــالُـهُم
إِذ لا يَميلُ مَعَ الهَوى أَحلامُها
وإذا الأمانةُ قُسِّمَتْ في مَعْــشَرٍ
أَوْفَى بـأَوْفَـرِ حَظِّــنَا قَسّـامُهَا

فبنى لنا بيتـاً رفـيـعــاً سمـكُـهُ
فَـسَما إليه كَهْلُهـا وَغُلامُها[١٨]

وهـا هـو يعـيّر عُيَيْنَـة بـن حصـن الفِـزَاوي ويحقـره علـى هزيمـة قومـه ويفخـر هـو لانتصـار قومـه فيقـول:

١٨ - اللزاز: الملازم للشئ - جشامها: من التجشم أي ركوب الخطر.

رأيت ابن بدر ذُلَّ قومك فاعترف
غداة رمى جحشٌ فأفْوق مالكاَ
بخيركمُ نفساً وخيركمُ أباً
أعزُّهم حيا عليهم .. وهالكاَ

ويذكر مزهواً فوز قومه فى معركة الشِّعْب فيقول:

منا حماةُ الشِّعبِ يوم تواكلتْ
أسدٌ وذبيانُ الصّفا وتميمُ
فارتث كلْماهُم عشيةَ هزْمِهم
حىٌّ بمنعرجِ المسِيلِ مقيمُ

وقال يبكى دياره حينما رحل عنها إلى اليمن:

بكتنا أرضُنا لما طَعَنّا
وحيّتنا سُفَيْرةُ والغيامُ
محلُّ الحىّ إذ أمسوْا جميعاً
فأمسى اليومَ ليس به أنامُ

وكان يحمل في داخله حساً واعياً بالموت وزوال المجد الدنيوي.. فحينما هلك النعمان بن المنذر أنشد يرثيه رثاء مرا.. لكنه قال فيما قال بنظرة المتأمل للحياة والموت:

وأمسى كأحلام النيام نعيمُهم

وأى نعيمٍ خلتَهُ لا يزايلُ

ترُدُ عليهم ليلةٌ أهلكتهمُ

وعام وعام يتبعُ العامَ قابلُ

ألا كل شئ ما خلا الله باطلٌ

وكل نعيم لا محالة زائلُ

وكلُ أناس سوف تدخل بينهم

دُويهيةٌ تصفرّ منها الأناملُ

وكل امرئ يوما سيعلمُ سَعيَه

إذا كُشفتْ عند الإله المحاصلْ

ولولا اقتران هذه القصيدة بدلائل موثوقة بشعر لبيد الجاهلي.. لما تردد الدارس فى ضمها إلى شعره الإسلامي.. بدليل قوله (ﷺ): أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شئ ما خلا الله باطل.

فإذا انتقلنا إلى قسمه الإسلامي وجدناه – بعد أن قرأ القرآن الكريم – قد تهذب فى لفظه.. ورق فى معانيه.. وأكسب شعره طلاوة وعذوبة أو على حد قول ابن سلام:

كان عذب المنطق.. رقيق حواشي الكلام.. وكان مسلماً رجل صدق.

ويتضح ذلك فى مراثيه لأخيه أربد.. وفيها يقول:

بَلينا .. وما تبلى النجومُ الطوالـعُ

وتبقى الجبال بعــدنا والمصانعُ[١٩]

فلا جـزعٌ إن فـرَّق الـدهـرُ بيننا

وكـلُ فتى يومـاً به الـدهـرُ فاجعُ

وما الناس إلا كالـديار وأهـلها

بهـا يـوم حَـلّـوهـا وغـدْواً بلاقعُ

وما المرء إلا كالشهـاب وضـوئه

يحـورُ رمـاداً بعـد إذ هـو سـاطـعُ

وما البر إلا مضمراتٌ من التُـقى

ومـا المـال إلا عـاريـاتٌ ودائــعُ

ولنـا أن نتأمـل الفـرق بـين مرثيتـه السـابقة فـى النعمـان بـن المنـذر ومرثيتــه هــذه فــى أخيــه.. وكيــف عــذب منطقــه.. ولان أسـلوبه.. واسـتلهم مـن القـرآن معانيـه.. وليـس معنـى ذلـك أنـه وقـف عنـد ظاهـرة الألفـاظ الإسـلامية (الـبر) – (ودائـع).. وإنمـا نـري الإسـلام وقـد تغلغـل فـى وجدانـه وامتـزج بدمـه فـى شـعره.. وأمامنـا روايـة فـى ديوانـه تبـين وفادتـه إلى المدينـة مـع جماعـة مـن

١٩ - المصانع: الأبنية الضخمة.

قيس حين اشتد الجدب على مضر وتذكر الرواية أنه أنشد الرسول (ﷺ) أبياتاً يتوسل إليه فيها أن يدعو الله لهم بالسُّقيا ويبين ما أصاب قومه من الأذى والجهد.. فيقول:

أتيناك يا خيرَ البريةِ كلِّها
لترحمنا مما لقينا من الأزْلِ
أتيناك والعذراءُ يدمى لبانُها
وقد ذهلتْ أم الصبىّ عن الطفلِ
ولا شئ مما يأكل الناس عندنا
سوى العلهز العامىّ والعبهر الفسْلِ
وليس لنا إلا إليك قرارنا
وأين يفر الناسُ إلا إلى الرسل[٢٠]
فان تدع بالسقيا وبالعفو ترسلِ
السماءُ لنا والأمر يبقى على الأصلِ

وهذا نموذج آخر من قصائده التى تتجلي فيها المعاني الإسلامية:

---

٢٠ - الأزل: ضيق العيش - العلهز: طعام يؤكل فى المجاعات - العبهر: النرجس والياسمين - العمي: الحولي - الفسل: الذى لا يؤكل.

obeikandl.com

إنما يحفظ التّقى الأبــرارُ

وإلى الله يستــقر القرارُ

وإلى الله ترجعون وعنـد الله

وردُ الأمور.. والإصدارُ

كل شئ أحصى كتاباً وعلماً

ولـديه تجـلت الأسـرارُ

أو يقـول فـى رثـاء أخيه أيضاً رافضاً الاستسـلام والكسـل والتردد:

وإذا رمت رحـيـلاً فـارتحـلْ

واعْص ما يأمرُ توصيمَ الكسَلْ

واكذب النفسَ إذا حـدثتـهـا

إن صدق النفسِ يزرى بالأملْ

واضبط الليل إذا طال السُّرى

وتـدجّـى بـعـد فـورٍ واعتـدلْ

وهو القائل معترفاً:

الحـمـد لله إذ لم يأتنى أجـلى

حتى كسانى من الإسلام سربالاَ

لقي الإسلام إذن في وجدان لبيد أصداء كثيرة من الرضي والاطمئنان والإيمان ولأنه شاعر كبير.. سار شعره على كل لسان.. وأعجب به الرسول والمسلمون لأته نهل الكثير من القيم الإسلامية الروحية فلونت شعره بلون جديد.. ولا شك أن نظرة تأملية خلال قسمي شعره تؤكد لنا هذه النقلة على المستوى الفني واللفظي والبلاغي.. ومن ثم شكل لبيد جانباً مهماً في المشهد الشعري الإسلامي.

٢. الحطيئة:

اختلف الرواة على حسن إسلامه.. كما اختلفوا على شعره الجاهلي والإسلامي ومكانته بين الشعراء.. فقد ذكر له القرشي في جمهرته قصيدة في (المشوبات).

نأتك أُمامةُ إلا سؤالاَ

وأبْصرت منها بعينِ خيالاَ

ويقول عنه ابن قتيبة: وهو جاهلي الإسلام ولا أراه أسلم إلا بعد وفاة الرسول (ﷺ) لأني لم أسمع له بذكر فيمن وفد عليه من وفود العرب إلا أني وجدته يقول في أول خلافة أبي بكر حين ارتدت العرب:

أطعنا رسول الله إذ كان حاضراً

فيالهفتى ما بال دين أبي بكر

أيورثها بكراً إذا مات بعده

فتلك وبيت الله قاصمة الظهرِ

ويقول ابن قتيبة تعليقاً على ذلك:

وقد يجوز أن يكون أراد بقوله (أطعنا رسول الله) قومه أو العرب.. وكيف ما كان فإنه كان رقيق الإسلام لئيم الطبع.

ويوفقه فى ذلك الأصبانى فى أغانيه حيث يقول: هو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم.. متصرف فى جميع فنون الشعر.. مجيد فى ذلك أجمع.. وكان ذا شر وسفه ونسبه متدافع بين العرب وكان ينتمي إلى واحدة منها إذا غضب على الآخرين.. وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وقيل إن الحطيئة غلب عليه ولقب به لقصره وقربه من الأرض.

وقد ولد الحطيئة لأمة تسمى الضراء كانت لأوْس بن مالك العبْسي ونشأ فى حجره مغموزاً فى نسبه.. فجعله ذلك قلقاً مضطرباً عدوانياً فى هجائه.

وحينما أضاء الإسلام جزيرة العرب.. لم يسارع الحطيئة إليه.. ومن هنا اختلف الرواة هل قدم على الرسول (ﷺ) بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة كعب أو تأخر فى ذلك حتى توفي الرسول (ﷺ).

على أن موقفه من عمر بن الخطاب فيما بعد حين هجا الزبرقان يؤكد إسلامه وفى ذلك قوله:

ولما أن مدحتُ القوم قلـتم

هجـوت ولا يحل لك الهجاءُ

ألم أك مسلماً فيكون بينى

وبينـــكـم المـــودة والإخـــاءُ

ولم أشتم لكم حَسَباً ولكن

حدوْتُ بحيث يُستمع الحداءُ

فهو هنا يذكر حرمة الإسلام ويحتج بها.

بل نراه فى مديحه يذكر جزاء الله لمدوحه على ما يقدمه من بر:

فليجزه الله خيراً من أخى ثقة

وليهده يُهدى الخيرات هاديها

وقد يستهل المدح بالثناء على الله:

الحمد الله إنى فى جوار فتى

حـــامى الحقيقة نقاع وضرارِ

ويعـترف أبـو عمـرو بـن العـلا بـأن العـرب لم تقـل بيتـاً أصـدق مـن بيـت الحطيئـة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناسِ

ويذكر بعض القيم الإسلامية فى شعره:

ولست أرى السعادة جمع مالٍ

ولكـــن التقىَّ وهو السّعيدُ

وتقوى الله خيرُ الـــزادِ ذخـراً

وعـنـــد الله لـــلأتـقـى مـــزيـــدُ

أو يقول:

ألم أك مسـكـيناً إلى الله مسـلماً

على رأسه أن يظلم الناس زاجره

وبالرغـم مـن إسـلام الحطيئـة فهـو يمتلـك لسـاناً بذيئـاً هاجيـاً.. هجـا بـه أمـه وهجـا نفسـه:

أرى لِىَ وجها شـوَّه الله خُلْـقَه

فـقـبِّح من وجـهٍ وقبِّـح حـامله

ومـع هـذا فنحـن لا نسـتطيع أن نغفـل وجـود الحطيئـة فـى المشـهد الشـعري فهـو شـاعر كبـير.. وإن لم يكـن شـعاع الإسـلام واضحـاً فـى أشـعاره.

٣. العباس بن مرداس:

أمـه الخنسـاء الشـاعرة المخضرمـة.. وكان هو فارسـاً شـاعراً سـيداً فـى قومـه.. أدرك الجاهليـة والإسـلام.. وفـى خـبره فـى الأغانـي

يقول: كان لأبي صنم اسمه – ضمَار – فلما حضره الموت أوصاني به وبعبادته والقيام عليه.. فعمدت إلى ذلك الصنم فجعلته في البيت.. وجعلت آتيه في كل يوم وليلة مرة.. فلما ظهر أمر رسول الله (ﷺ) سمعت صوتاً في جوف الليل راعني يقول:

قل للقبائل من سُلَيْم كلها

هلك الأنيسُ وعاش أهلُ المسجدِ

إن الذى ورث النبوة والهدى

بعد ابن مريم من قريش مهتدِي

أودى ضمار وكان يعبد مرة

قبل الكتاب إلى النبى محمدِ

فكتمتُ الناس ذلك.. وبعد غزوة الأحزاب ركبتُ إلى محمد (ﷺ) وانتهيت إليه وبايعته وأسلمت.. وانصرفت إلى ضمار فأحرقته بالنار[٢١].

ويروى أن النبي (ﷺ) قسم غنائم هوازن فأكثر العطايا لأهل مكة.. فأعطي الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والعباس بن مرداس عطايا فضل فيها الأقرع وعيينة على العباس فجاءه العباس وأنشده:

---

٢١ - أوردنا ملخصاً لقصة إسلامه خالية من الخرافة.

obeikandi.com

وكـانـت نهـابـاً تـلافيتُهـا

بكرّى على المُهْرِ فى الأجْرعِ

فـأصبح نَهْبى ونهبُ العبيدِ

بـيـن عُـيَـيْـنـة والأقـــرعِ

وما كان حصن ولا حابسٌ

يـفـوقـان مرداس فى مجمعِ

وما كنتُ دون امرئ منهـما

ومـن تضـع اليـوم لا يُرفعِ

والنهـب هنـا – هـى الغنائـم – فلمـا سمعهـا الرسـول (ﷺ) قـال: اقطعـوا عنـى لسـانه وأمـر بـأن يعطـوه مـن الشـاء والنعـم مـا يرضيـه ليمسـك.. فأعطـي.. فاحتجـت الأنصـار علـى ذلـك.. فجمعهـم الرسـول وأرضاهـم:

وكان العباس حين أحرق صنمه وأسرع إلى الرسول.. وأنشده:

لعمرى إنى يوم أجعـلُ جاهــداً

ضماراً لرب العالمين مشاركاَ

وتركى رسول الله والأوس حوله

أولئـك أنصـارُ له ما أولئكاَ

كتارك سهْل الأرض والحزن يبتغى
ليسلك فى غيبِ الأمور المسالَكاَ
فآمـنت بالله الـذى أنا عـبدُه
وخالفتُ من أمسّى يريدُ المهالكاَ

★★★

نبيـاً أتـانـا بعـد عيسى بنـاطـقِ
مـن الحق فيه الفصل منه كذلكاَ
أمـيـنـا على الـفـرقـان أول شـافـع
وآخـر مبعوث يجيب الملائكـاَ

وفى قصيدة أخرى يقول العباس:

بـلـغ عـبـاد الله أن محـمـدا
رسـول الإله راشـدٌ أين يمَّماَ
دعـا قـومـه واسـتـنـصـر الله ربـه
فـأصـبـح قـد وافى الإلـه وأنعماَ

ومـن هـذه الأمثلـة تتجلـي لنـا مواقـف هـذا الشـاعر الـذى كان يداعـب الصنـم ويقيـم الوصيـة برعايتـه وعبادتـه.. ثـم هـا هـو يسـرع إلى نـور الإسـلام ويعـبر عـن ذلـك فـى أشـعاره ليحتـل جانبـاً فـى سـاحة الشـعر..

٤. كعب بن زهير:

هو كعب بن زهير بن أبي سُلمي لم يأذن له أبوه بقول الشعر وهو غلام إلا بعد أن وضعه في اختبار فني وجعله يكمل معه قصيدة – ارتجالاً – فأذن له.

وتقول أخباره مع الإسلام.. إنه خرج مع أخيه بجُير متجهيْن إلى الرسول (ﷺ) فبلغا – أبرق العزّاف – بالقرب من المدينة.. فقال كعب لبجير: الحق أنت بالرجل وأنا مقيم هنا فانظر ما يقول لك.. فقدم بجير على رسول الله فسمع منه وأسلم وبلغ ذلك كعباً فقال:

ألا أبلغا عني بُجَيْراً رسالة
على أي شئ ويْبَ غيرك دلّكاً
على خُلُق لم تُلف أمَا ولا أباً
عليه ولم تدركْ عليه أخاً لكاً
سقاك أبو بكر بكأسٍ رويةٍ
فأنهلك المأمون منها وعلكاً

فبلغت هذه رسول الله (ﷺ) فأهدر دمه.. فكتب إليه أخوه يخبره بذلك.. وقال: انج بنفسك.. ثم كتب إليه بعد ذلك: إن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله قبل الرسول منه وأسقط ما كان قبل ذلك.. فلما بلغ ذلك كعباً ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه.. فأسرع إلى الرسول حين صلي الصبح.. وجلس

إليه فوضع يده فى يده.. وكان الرسول لا يعرفه فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل عنه إن جئتك به.. قال: نعم.. قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.. فحاول رجل من الأنصار قتله.. فصاح الرسول: دعه عنك فإنه قد جاء تائباً.. فأنشد كعب قصيدته:

بانِت سعاد فقلبى اليوم متبولُ

متيم إثـرَها لم يفد مكبولُ

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا

إلا أغنُّ غضيض الطرفِ مكحولُ

هيفاءُ مقبلةٌ عجزاءُ مدبرةٌ

لا يشتكى قِصَرٌ منها ولا طولُ

وبعد أن استوفي غزله قال:

نُبِّئتُ أن رسول الله أوْعدنى

والعفو عند رسول الله مامولُ

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلةَ

القرآن فيها موعيظ وتفصيلُ

لا تأخذنى بأقوالِ الوشاة ولم

أذنب ولو كثرت فىَّ الأقاويلُ

ثم قال:

إن الــرسـولَ لنورٌ يُسْتضـاءُ به

مهـند من سـيوف الله مسـلولُ

فى عُصبة من قريش قال قائلهم

ببطن مــكة لما أسْلموا زولوا

فقبله الرسول وحسن إسلامه..

ويقـال إن الرسـول قـال لـه: لـولا ذكـرت الأنصـار بخـير فإنهـم لذلـك أهـل. فقـال:

من سرَّه كـرمُ الحيـاة فــلا يزلْ

فى مقْـنبٍ من صالحى الأنصارِ

ورثوا المكارمَ كـابراً عـن كـابرٍ

إن الخيـار هــمُ بنــو الأخيـارِ

والناظــرين بأعين مــحمرَّةٍ

كـالجـمْر غـيرِ كليلةِ الإبصـارِ

والبائعـين نفـوســـهـم لنبيهم

للمـوت يوم تــعـانُقٍ وكـرارِ

والذائدين الناسَ عن أديانهم

بالمشـــرفيّ وبالـقـنا الخـطارِ

يتطهرون يـــــرونه نسكاً لهم

بدماء مـن علقوا من الكفار

وبهـذا احتـل كعـب بـن زهـير مكانـه فـى المشـهد الشـعري الإســلامي.

٥. النابغة الجعدي:

سُمـى النابغـة لأنـه أقـام مـدة لا يقـول الشـعر ثـم نبـغ فقالـه.. وهـو عبـد اللّه بـن قيـس العامـري.. شـاعر عـاش الجاهليـة والإسـلام وعمـر طويـلاً.. وكان فـى الجاهليـة يتغـني بقومـه وانتصاراتهـم فـى حروبهـم ويهجـو أعداءهـم وخاصـة بـني أسـد الذيـن قتلـوا أخـاه فـى إحـدى المعـارك.. وفـى ذلـك يقـول فـى أخيـه:

فتى كمُلت أخلاقُه غـير أنـه

جـوادٌ فما يُبقى من المال باقياَ

فتى ثمّ فيه مـا يسُرُّ صـديقـهَ

على أن فيه ما يسوءُ الأعادياَ

وفـد النابغـة مـع قومـه علـى الرسـول سـنة تسـع للهجـرة وأنشـده يقـول:

أتيتُ رسـول الله إذ جـاء بالهـدى

ويـتـلو كـتـابـاً كـالمجـرة نيراَ

وجاهدتُ حتى ما أحسُّ ومن معى

سهيـلاً إذا مـا لاح ثمت غوَّراَ

أقيم على التـقـوى وأرضى بفـعـلها

وكنـت من النار المخُوفة أوجراَ

فلما بلغت قصيدته قوله:

بلـغنـا الـسـماء مجـدنـا وجـدوُدنـا

وإنا لنبـغى فـوق ذلك مظهراً

قـال الرسـول (ﷺ): فأيـن المظهـر يـا أبا ليلـي فأجابـه: الجنة.. فأعجـب الرسـول بشـعره ومنطقه.

فقال له: لا يفضَّض الله فاك.

وأقـام فـي المدينـة مهاجـراً.. وجاهـد فـى حـروب الفـرس.. وكان فارسـاً مغوراً.

وللنابغـة أشـعار كثـيرة اسـتلهمت روح الإسـلام وقيمـه.. وأكـدت أن الشـاعر يمتلـك حسـاً يسـتوعب هـذه القيـم الجديـدة.. وذلـك فـى مثـل قولـه:

ولبست مِلْ الإسلام ثوباً واسعاً

من سيب لا حرم ولا منان[٢٢]

أو يصوغ هذه القيم فى أبيات يقول فيها:

الحـمـد لله لا شـريـك لـه

مـن لم يقـلـهـا فنـفسـه ظلماَ

المولج الليلَ فى النهار وفى الليـ

ـل نهاراً يـفـرِّج الظُـلَـمَاَ

الخافض الـرافـع السـماء على

الأرض ولم يبن تحتـهـا دعَـمِاَ

الخالق الـبـارئ المـصـور فى الأر

حـام مـاءٌ حـتـى يصـير دماَ

مـن نطـفة قـدَّرهـا مـقـدُّرُهـا

يخـلُـق منهـا الأبشار والنِّسَماَ

ثم عظـامًـا أقـامـهـا عـصـبٌ

ثُمّتَ لحـماً كـسَـاه فالـتـأما

٢٢ - مل: من - سيب: عطاء - حرم: مناع

ثم كسَا الرأس والعواتق أبشاراً
وجلداً تخاله أدماَ
والصوت واللونَ والمعايش والأخلاق
شتى وفرَّق الكلماَ
فائتمروا الآن ما بدا لكمُ
واعتصموا إن وجدتُم عِصماَ
فى هذه الأرض والسماء ولا
عصمةَ منه إلا لمن رَحِماَ

لقد وجد النابغة موضوعاته ومضامينه فى القرآن الكريم.. فأخذ ينهل منه ما شاء ويصوغه صياغة شعرية.. وهى صياغة – وإن كانت ضعيفة المستوى الفني – لكنها تؤكد على أية حال تأثر الشعراء المخضرمين بالعقيدة الجديدة.. وتمثل قيمها ومعانيها ومواعظها.

★★★

٦. حميد بن ثور الهلالي

ويكني أبا المثني.. وأبا الأخضر.. وأبا خالد

وهو شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية وقضي الشطر الأكبر من حياته فى الإسلام ولذا عده ابن سلام وغيره من شعراء الطبقة الرابعة الإسلاميين.

أدرك حميد عهد عمر بن الخطاب.. وتوفي على الأرجح زمن عثمان بن عفان.

يقول عنه الأصمعي: العظماء من الشعراء العرب الإسلاميين أربعة: راعي الإبل النميري.. وتميم بن مقبل العجلاني.. وابن أحمر الباهلي.. وحميد الهلالي.

ويقول عنه المرزباني: كان أحد الشعراء الفصحاء وكان كل من هاجاه غلبه.

وما يهمنا من أخبار هذا الشاعر أن أشعاره في الجاهلية كانت تتسم بالجزالة والصعوبة.. فلما دخل الإسلام اكتسبت ليونة وعذوبة.. كما أن معانيه اختلفت من الجاهلية إلى الإسلام.. فقد كان يقول مثلا:

وصهباء منها كالسَّفينة نضّجتْ

به الحملَ حتى زاد شهراً عديدُها

طوت دون مثلِ القلبِ منها ألفَّة

كأرديةٍ من بركة تسْتجيدُها[٢٣]

فلما أسلم على يد الرسول (ﷺ) قال:

أصبح قلبى من سُليمى مُقصدا

إن خطأ منها وإن تعمّداَ

٢٣ - الصهباء: الناقة فيها حمرة وبياض وشبهها بالسفينة - الألفة: ما يلتف به الولد فى الرحم

فحمّل الهم كلازاً جلعدا

ترى العُليْفىّ عليها مؤْكَداَ

ونجَد الماء الذى توردا

تورد السَّيد أراد المرصَداَ

حتى أرانا محمدا

يتلو من الله كتاباً مرشِداَ

فلم نكذب وخررنا سُجّدا

نُعطى الزكاة ونؤمّ المسجداَ[٢٤]

وها هو حينما سمع الرسول يقول: (لو لم يكن لابن آدم الصحة والسلامة لكفاه بهما داء قاتلاً..) فأخذ المعنى وقال:

أرى بصرى قد رابنى بعد صحةٍ

وحسبك داءً أن تصح وتسلماَ

ولا يلبث العصران يوماً وليلة

إذا طلبا أن يدركاً ما تيمماَ

٢٤ - الكلاز: اجتماع الشئ - الجلعد: العظيم الضخم - العليفى: رجل منسوب إلى عِلاف.

obeikandl.com

بل نسب إليه كذلك ذمه للبخل حين قال:

لـقـد أمـرت بالبـخـل أم محـمـدٍ

فقلت لها حتْيى على البخل أحمدا

فإنى أمـرؤ عـودتُ نـفـسى عـادةً

وكـل امـرئ حـار على مـا تعوداَ

أحين بدا فى الرأس شيبٌ وأقبلت

إلى بنـو عـيْـلان مثنى.. ومُوْحَدا

رجوتِ سقوطى واعتلالى ونبْوتى

وراءكِ عنى طـالقاً وارحـلى غدا

ويتخذ حميد فى مشهد الشعر الإسلامي مكانه اللائق.

★★★

ونكتفـي هنـا بهـؤلاء الشـعراء المشـهورين مـن عـدد كبـير مـن الشـعراء المخضرمـين.. الذيـن أسـلموا وأسـهموا فـى تكويـن المشـهد الشـعري الإسـلامي

ولا ننسـي فـى غمـرة احتفائنـا بهـؤلاء الشـعراء الـذى احتلـوا مكانـة مضيئـة فـى سـاحة الشـعر هـؤلاء الشـعراء المشـركين.. الذيـن لم يسـلموا.. بـل ظلـوا علـى عقيدتهـم سـواء أكانـت وثنيـة أم يهوديـة أو حنفيـة.. وهـو الذيـن ألقـوا سـهامهم الشـعرية علـى الإسـلام والمسـلمين.. وبـرز لهـم شـعراء المسـلمين يـردون عليهـم..

وسوف تكون لنا وقفة أخرى في هذا المشهد الذى يمكن أن يقترب من فن المناقضات أو المنافرات.. ونعترف أنهم – بالرغم من عدم إسلامهم – يمثلون جانباً مهماً من هذه الساحة الشعرية الواسعة.

إن هذا المشهد الشعري يضم عدداً كبيرا من الشعراء الذين عبروا الجاهلية إلى الإسلام وقد نال بعضهم شهرة أدبية واسعة – كما ذكرنا – ولم ينل البعض الآخر تلك الشهرة ومن هؤلاء مثلاً: أبو الدرداء – عبدة بن الطيب – الحصين بن الحمُام – النمر بن تولب – المخبل السعدي – أبو ذئيب الهزلي – زيد الخيل – عبد الله بن الزبير – كعب بن الأشرف وغيرهم كثير.

ثانيا: شعراء الدعوة الإسلامية:

١. حسان بن ثابت

هو أحد الشعراء الثلاثة اصطفاهم الرسول (ﷺ) ليظلوا حوله يدعون بدعوته.. ويردون على هجاء المشركين له وللمسلمين.

ففي حديث (ﷺ) أنه قال في معرض هجاء المشركين: أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن.. وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن.. وأمرت حسان بن ثابت فشفي واستشفي.

وحينما اشتد أذي قريش للرسول وأصحابه.. فقال حسان: أنا لها يا رسول الله.. فقال النبي: كيف تهجوهم وأنا منهم.. قال: أسُلك منهم كما تُسل الشعرة من العجين.. فقال له: اهجهم ومعك روح القدس..

وكان الرسول (ﷺ) يقول عن شعر حسان: لهذا أشد عليهم من وقع النِّبل.. أما حسان فكان أبوه ثابت بن المنذر من سادة قومه وأشرافهم.. وكانت أمه (الفريعة) خزرجية مثل أبيه.. وقد أسلمت حين أدركت الإسلام.

وكان حسان قبل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة.. والنعمان بن المنذر شأنه شأن كبار الشعراء في زمانه.

ذكر المبرد أن أعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان.. فإنهم يعتدون ستة في نسق واحد وكلهم شعراء وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن خزام.

وكان حسان فخوراً بنفسه بشعره.. قال له سفيان بن الحارث يوما:

ألا من مبلغ حسان عنى

خلفتُ أبى ولم تخلف أباكا

فأجابه على الفور:

لأن أبى خلافتُه شديدٌ

وأن أباك مثلك ما عداكا

ويبدو أن براعته – تلك في الشعر وإصابته في يده.. جعلاه فارس معركة الشعر.. وليس فارس قتال بالسيف.. ولهذا وصفه البعض بالجبن والخذلان.. بالرغم من وصفه لشجاعة قومه وفي ذلك يقول:

لسانى وسيفى صارمان كلاهما

ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودى

وأسلم حسان مع هجرة الرسول إلى المدينة وكان سباقاً إلى اعتناق الإسلام والقرب من الرسول (ﷺ).

ولحسان مذهب فى الشعر الذى يعبر عنه فى قوله:

وإنما الشعر لب المرء يعرضه

على المجالس إن كيْساً وإن حُمقاً

وإن أشعر بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

وهو لا يفعل مثل غيره من الشعراء فيسرق معاني الآخرين وإنما هو أمير نفسه:

لا أسرق الشعراء ما نطقُوا

بل لا يوافق شعرهم شعرى

فهو لا يعمد إلى التكلف فى شعره ولم يلتزم مذهباً معيناً مثل زهير والنابغة والأعشى بل كان يترك وجدانه على سجيته يعبر بتلقائية خاصة.

ونلاحظ أن شعره الجاهلي كانت تشوبه الحوشية والأخيلة البدوية وجزالة اللفظ. وأقوى أشعاره آنذاك ما عارض به شعراء الأوس وما مدح به الغساسنة فهو يفعل كما يفعل الشعراء الجاهليون في استهلال قصائدهم:

عفت ذاتُ الأصابع فالجِواءُ
إلى عذراءَ منزلها خلاءُ
ديار من بنى الحَسْحَاسِ قفرٌ
تعفيها الروامسُ والسماءُ
وكانت لا تزال بها أنيسٌ
خلال مروجها نَعَم وشاءُ

أو يقول:

ألم تسأل الربعَ الجديدَ التكلما
بمدفع أشراخ فبرقةَ أظلماَ

أو يقول:

لمن منزلٌ عافٍ كأن رسومَه
خياعيلُ ريْطٍ سابريٌّ مرسمِ[٢٥]

٢٥ - الخياعيل: جمع خيعل وهو الجلد - السابري: نسبة إلى سابور - المرسم: العلم المخطط

obeikandi.com

وقد كتب حسان فى أغراض الشعر المختلفة ومنها الفخر فى مثل قوله:

ونحن إذا لم يبرم الناسُ أمرهم

نكون على أمرٍ من الحق مبرمِ

ولو وزنت رضوى بحلم سراتنا

لمال برضوى حلمنا وبلملم[٢٦]

وكان ينشد قصائده بسوق عكاظ.. ويوما قضي النابغة فى الشعر للخنساء حين أنشدته وقال: والله لولا أبا البصير – الأعشى – أنشدني قبلك لقلت إنك أشعر الناس.. فغضب حسان لذلك وقال له: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك فقال النابغة: حيث تقول ماذا.. فقال:

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعن بالضحاً

وأسيافُنا يقطرن من نجدةٍ دما

فقال له النابغة: يا أخي إنك لا تُحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذى هو مدركى

وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

---

٢٦ - رضوي - وبلملم: جبلان

ويدخل حسان فى جاهليته ميدان المهاجاة والمناقضة.. ومن ذلك أنه قال يعير أبا قيس لما أصاب قومه فى يوم معبس ومضرس وينتهي إلى لون من الهجاء المشوب بالفخر..

ألا أبلغ أبا قيس رسولاً

إذا ألفى بها سمعاً تُبينُ

قتلتم واحداً منا بألفٍ

هلاَ لله ذا الظفرُ المبينُ

وذلك أن ألفكمُ قليلٌ

لواحدنا أجل أيضا ومينُ

فلا زلتم كما كنتم قديماً

ولا زلنا كما كنا نكونُ

ويقول فى هجاء مزينة التى كانت تحارب مع الأوس ضد الخزرج:

مُزينَةُ لا يرى فيها خطيبٌ

ولا فلجٌ يطاف به خصيبُ

رجال تهلك الحسنات فيهم

يرون التيس كالفرس النجيب[٢٧]

---

٢٧ - هكذا فى الديوان.. تحركت الروي من الرفع إلى الجر..(ديوان حسان: تحقيق د. سيد حنفي حسين)

ويقول فى الغزل والخمر:

كـــأن فـــاها شـــغبٌ بـــاردٌ
فى رصف تحـــت ظلال الغمامْ
شُـــجت بصهبـــاءَ لهـا ســـوْرة
من بيت رأس عتقت فى الخيامْ
عتَّـقها الحـانـــوتُ دهـــراً فقـد
مـــرَّ عـليها فرطُ عام .. فعامْ
تشـــــربها صِـــرْفـا وممـزوجـة
ثـم نغنى فـــى بيـوت الرُّخام
تـــدب فـــى الجســـم دبيباً كـما
دبَ دبـاً وسط رَقـاقٍ هَيامْ
كـــأساً إذا ما الـشـيـــخ والى بها
خمساً تـردى بـرداء الـغـلامْ[٢٨]

وديـوان حسـان مملـوء بهـذه الأشـعار التى تـتردد فيها الأسـاليب الجاهليـة المألوفـة لـدى أمثاله من الشـعراء..

وننتقل معه إلى شـعره الإسـلامي.. لنجده بعد أن كان يفخر بآبائه وقومـه فخـراً جاهليـاً خالصـاً.. صار يفخـر بفعال قومه فى الإسـلام..

---

٢٨ - ثغب: الغدير بين الظلال - شجت بصهباء: مزجت الخمر.

وحسن بلائهم فى نصرته والدفاع عنه.. وما قدموا لله وللرسول.

وسلمت ألفاظه من الحوشية.. وخالطها لين الحضارة.. وغلبت عليها الصبغة الإسلامية كتوليد المعاني من عقائد الدين الجديد.. واستعارة صيغ القرآن الكريم وكناياته وضرب أمثاله.. ووصف الشعائر الإسلامية.

وقف حسان إلى جانب الرسول (ﷺ) وصحابته وبعض خلفائه مؤيداً ومنافحاً وداعياً.

وهنا لنا أن نلاحظ ملاحظة مهمة.. تؤكد أهمية الشعر فى نشر الدعوة الإسلامية.. فالعرب قوم كونوا ثقافتهم وحضارتهم بأسلوب الشعر.. وهو سلاح إعلامي له تأثيره القوي.. فلا حرج أن يفتحوا آذانهم للشعراء حينما يغلقونها أمام تلاوة القرآن أو المواعظ النبوية..

ومن ثم كان ترحيب الرسول بالشعراء الذين أسلموا ووقفوا إلى جانبه.. يمثل أسلوباً سياسياً مهماً فى نشر الدعوة.. فعن طريق الشعر – كذلك – يستطيع أن يقنع الناس بالدعوة.. وأن يرد على من يهجوه بالشعر.. ويؤكد القيم الإسلامية عن طريق الشعر.. مادام العرب يصغون إلى هذا الفن أكثر مما يصغون إلى غيره..

وكان أول شعر قاله حسان فى الإسلام حينما قال ضرار بن الخطاب شاعر قريش وفارسها:

تدركتُ سعداً عَنْوة فأخذتُه

وكان شفاءٌ لو تدركتُ منذراَ

ولو نلتُه طُلت هناك جراحُه

وكان حريا أن يهان ويهدراَ

وهو يقصد هنا سعد بن عباده والمنذر بن عمرو.. فأجابه حسان:

لستَ إلى سعد ولا المرء منذرٍ

إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمَّرا

فلاتك كالوسنان يحلم أنه

بقرية كسرى أو بقرية قيصرا

ولا تكُ كالثكلى وكانت بمعزلٍ

عن الثكل لو كان الفؤاد تفكّرا

ولاتك كالشاة التى كان حقفُها

بحفْر دراعيها فلم ترض مَحْفرا

ولاتك كالعاوى فأقبل نحره

ولم يخْشه سهماً من النَّبل مضمرَا

أتفخر بالكتان لما لبستَه

وقد يلبسُ الأنباطُ ريْطا مقصرا

وكان أول فخر قاله فى الإسلام.. حينما وفد الرسول (ﷺ) إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام:

وثـوى بمكـة بضـعَ عـشـرةَ حِجة
يذكِّـر لو يلـقى خليـلاً مــواتياَ
ويـعـرضُ فى أهـل المـواسـم نفسَه
فـلم ير مـن يُـؤوى ولم يـر داعياَ
فـلـما أتانا واطـمـأنت به الـنّــوى
فـأصـبـح مسـروراً بطيبة راضياَ
وأصبح لا يخشى عــتداوة ظــالـمٍ
قريبٍ ولا يخشى من الناس باغياَ
بذلنا له الأمـوال مـن جُـل مـالـنـا
وأنـفـسـنـا عند الوغى والتآسياَ
نحاربُ من عادى من الناس كلهم
جميعــاً وإن كان الحبيب المصافياَ
ونــعــلــمُ أن الله لا ربَّ غــيــره
وأن كـتـاب الله أصـبـح هــادياَ

فهـو يفخـر ويـدل فـى رفـق بمـا بذلـه قومـه للرسـول.. ونلاحـظ أنـه يـؤرخ للهجـرة فيذكـر إن إقامـة الرسـول فـى قومـه بعـد رسـالته كانـت بضـع عشـرة حجـة.

وفى موضع آخر يقول عن قومه :

أولَئِـكَ قَـومـي فَـإِن تَسـأَلي
كِـرامٌ إِذا الضَيفُ يَـوماً أَلَمَ
يُواسـونَ مَـولاهُـمُ في الغِنى
وَيَحمـونَ جارَهُمُ إِن ظُلِمْ
لُيوثٌ إِذا غَضِبوا في الحُروبِ
لا يَنكَـلـونَ وَلَكِن قُدُم[٢٩]

ثم يقول :

فَلَمّـا أَتـانـا رَسـولُ المَلـيـكِ
بالنور والحقِ بعد الظُلْمْ
رَكـنّـا إِلَـيـهِ وَلَم نَـعـصـهِ
غَداةَ أَتانا مِنَ ارضِ الحَرَمْ
وَقُلنا صَدَقتَ رَسولَ المَلـيـكِ
هَـلُـمَّ إِلَيـنـا وَفينـا أَقِـمْ

٢٩ - ينكلون: يجبنون - قدم: يقدمون ويهجمون.

فَنَشهَـدُ أَنَّـكَ عَـبـدُ المَليـكِ

أُرسِـلـتَ نوراً بِدينٍ قِيَمْ

فَـنـادِ بِـمـا كُـنـتَ أَخـفَـيـتَـهُ

نِـداءً جِـهـاراً وَلا تَكتَتِمْ

فَـنَـحـنُ وُلاتُـكَ إِذ كَـذَّبـوكَ

فَـنـادِ نِـداءً وَلا تَحتَشِمْ

فَـإِنّـا وَأَولادَنـا جُـنـةٌ

نَقـيـكَ وَفي مالِنا فَـاِحتَكَمْ

أما هجاء حسان فيقول عنه د. محمد طاهر درويش في كتابه عن (حسان بن ثابت): لقد قضت البيئة والملابسات الخاصة التي تحيط بحسان أن يقول الشعر الهجائي في جاهليته وإسلامه.. فهجا أعداء قومه قبل الإسلام في سبعة عشر موضعاً.. ولكنه كان في الإسلام محامي الدعوة ووزير الدعاة.. يرد هجاء المشركين.. ويقود حملة التأديب عليهم.. ويشهر بمثالبهم.. ويرميهم بما يفدحهم.. وكانت المعركة طويلة حامية.. ومثال ذلك هجاؤه سفيان بن الحارث حيث يقول:

إن السَّنامَ وإن طالت شظيَّتُهُ

يعتادُ ذروتَه الأدواءُ والعَمدُ

فاللوْم فيك وفى سمراءَ ما بقيَتْ

وفـى سـمـيـةَ حتـى ينفَد الأبدُ

وفى ذلك أيضاً يقول:

وإن سنام المجد مـن آل هـاشـمٍ

بنـو بنت مخــزومٍ ووالدك العبدُ

ولستَ كعباس ولا كـابنِ أمِّــه

ولكن هجَينٌ ليس يُورَى له زَندُ

وهـو هنـا يهجـوه – بعـد أن عـرف مـن أبـي بكـر أنسـابه وبصـر بمداخلهـا ودخائلهـا.. فهجـاه بأمـه سمـراء.. وسميـة أم أبيـه.. ثـم يتحـدث عـن آل هاشـم – ويقصـد النـبي (ﷺ) وبنـت مخـزوم وهـى فاطمـة بنـت عمـرو بـن مخـزوم وبنوهـا هـم أبـو طالـب وعبـد اللّه بن الزبـير بنـو عبـد المطلـب.. والعباس بن عبـد المطلب وابـن أمه: ضرار أخـوه.. وأمهمـا مـن النمـر بن قاسـط.. والهجـين: يقصد بـه من كان أبـوه عربـي وأمـه أمـة.. لا يـواري لـه زند: كنايـة عن لؤمه وشـحُه.

أي أن حسـان فـى هجائـه ركـز علـى النقائـص والمعايـب فـى نسـب أبـي سـفيان مـن أمهاتـه لا مـن آبائـه.

كما هجاه مرة أخرى بما فيه من خساسة ذاتية فقال:

أبــوك أبٌ حـرٌ وأمـك حـــرةٌ

وقد يـلـد الحُـرانِ غير نجـيـبِ

فلا يعجبنَّ الناسُ منك ومنهما

فـما خَبَثٌ مـن فـضَـةٍ بعجـيبِ

أو يقول:

ولست بذى دين ولا ذى أمانة

ولست بحرٍّ من لُؤَيٍ ولا كعب

وبذلك حاصره من كل جانب بهجائه.. دفاعاً عن الإسلام ورداً على موقفه منه..

ويفعل نفس الشئ مع عبد الله بن الزَّبعري ومن ذلك قوله:

زعم ابن نابغة اللئيم بأننا

لا نجعل الأحساب دون محمدِ

أموالنا ونفوسُنا من دونه

من يصطنع خيراً يُثَبْ ويُحَمَّدِ

قوم ابن نابغة اللئام أذِلةٌ

لا يُقبلون على صفير المُرْعِدِ

وبنى لهم بيتاً أبوك مقصِّراً

كفرا ولؤمًا بئسَ بيتُ المحتدِ

ويقول فى أبي جهل:

لقد لعن الرحمان جمعاً يقودهُم
دعـيُّ بنى شجْـع لحرب محمدِ

مشومٌ لعينٌ كان قـدماً مبغضاً
يبين فيه اللؤمُ من كان يهتدى

ويقول فيه أيضاً:

سـمَّـاه مـعـشـرهُ أبـا حـكَـمٍ
والله سـمُّـاه أبـا جـهْـلِ

ولم يـترك حسـان أحـداً آذى النـبي والمسـلمين إلا هجـاه.. فقـد هجـا أميـة بـن خلـف.. وعتبـة بـن أبـي وقـاص.. وضـرار بـن الخطـاب.. وأبـا لهـب.. وبـني مخـزوم.. وبـني عـدي بـن كعـب.. وبـني أسـد بـن خزيمـة وغيرهـم مـن أجـل الدعـوة الإسـلامية والدفـاع عـن العقيـدة وعـن الرسـول (ﷺ).

وحسـان فـى الجاهليـة وإسـلامه كتـب فـى جميـع الإغـراض الشـعرية.. فـى الغـزل والوصف والمـدح والرثاء وغيرها مـن الأغراض.

ولأننـا هنـا لسـنا فـى مجـال دراسـة حسـان فـى أغراضـه المختلفـة.. لأن مـا يعنينـا هـو تطـور شـعره فـى الإسـلام.. وانصرافـه إلى الدفـاع عـن العقيـدة والـرد علـى هجـاء المشـركين.. ولاشـك أن معانـي كثـيرة قـد دخلـت شـعره فـى الأغـراض المختلفـة.. وإن

كان لم يتطور كثيراً في أغراض مثل الغزل.. لكنه ركز تطوره وإضافاته في الفنون الأخرى التي تخدم قضية الإسلام ومنها – إلى جانب الهجاء – وصف الغزوات والفخر بالإسلام والنصر.. ومدح الرسول وأخذه من القرآن الكريم.. ورثائه للرسول حين مات.. وهي فروق واضحة لمن يقرأ ديوانه.

وسوف نرجئ ما قاله حسان في الغزوات إلى باب قادم نخصصه لما قيل في هذه الغزوات من شعراء المسلمين والمشركين على السواء.

٢. كعب بن مالك الأنصاري:

وهذا ثاني الشعراء الثلاثة الذين وقفوا إلى جانب الرسول في دعوته ينافحون عنه – ويرجون هجاء المشركين.

وهو كعب بن مالك بن أبي كعب.. كان أبوه شاعراً قال الكثير في حروب الأوس والخزرج قبل الإسلام.. وعمه قيس بن أبي كعب شهد بدراً وهو شاعر أيضاً.. وابنه عبد الرحمن شاعر.. وابن ابنه بسير بن عبد الرحمن شاعر..

وفد عمر كعب بن مالك وروي عن النبي(ﷺ) أحاديث كثيرة.. من بين ذلك ما روي أن الرسول (ﷺ) قال: والذى نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر.

ويذكر الأغاني أن قريشاً كانت يهجوهم ثلاثة نفر من الأنصار: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة.. وكان حسان وكعب يعرضانهم بمثل قولهم بالوقائع

والأيام والمآثر.. ويعيرانهم بالمثالب.. وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه.. ويعلم أن ليس فيهم شئ شر من الكفر.. فكانوا – فى ذلك الزمان – أشد شئ عليهم قول حسان وكعب.. وأهون شئ عليهم قول ابن رواحة.. فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة!.

ويروي أن النبي (ﷺ) خرج على كعب بن مالك وهو فى المسجد ينشد الشعر فلما رآه كأنه انقبض.. فقال: كما كنتم فيه.. فقال كعب: كنت أنشد.

فقال الرسول (ﷺ): فأنشدْ:

فأنشد حتى أتي على قوله:

مقاتلنا عن جذمنا كل فخمةٍ

مذرية فيها القوانس تلمعُ

فقل الرسول: لا تقل عن جذمنا.. ولكن قل: مُقَاتلُنا عن ديننا.

ويروي أنه (ﷺ) وقف بباب كعب بن مالك.. فخرج له.. فقال له: إيه.. فأنشده.. ثم قال: إيه.. فأنشده.. ثم قال: إيه.. فأنشده – ثلاث مرات – فقال الرسول (ﷺ) لهذا أشد عليهم من وقع النبل.

ومن أخبار كعب بن مالك كذلك أنه لما اشتد الأذى برسول الله (ﷺ) بعد موت زوجته خديجة رضى الله عنها وعمه أبي طالب.. ووصل الأمر إلى التآمر لقتله – أمره الله بالهجرة

obeikandi.com

– وكانت المدينة قد هيئت لاستقباله بعد بيعة العقبة ومعاهدة نقباء الأوس والخزرج لرسول الله: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وسجل كعب فى شعره أمر النقباء فقال:

أبلغ أُبيا أنه قال رأيه

وحان غداة الشِّعب والْحينُ واقعُ

أبى الله ما منَّتك نفسُك إنه

بمرصاد أمر الناس راءٍ وسامعُ

وأبلغ أبا سُفيان أن قد بدا لنا

بأحمد نورٌ من هدى الله ساطعُ

ودونك فاعلمُ أن نقض عهودنا

أباهُ عليكَ الرهطُ حين تبايعُوا

أباه البراءُ وابنُ عمرو كلاهما

وأسعدُ يأباه عليك ورافعُ

وسعدٌ أباه الساعدى ومنذرٌ

لأنفك إن حاولت ذلك جادعُ

إلى أخر هذه القصيدة التى ذكر الأسماء كلها فيها.

ويروي ابن هشام فى سيرته أن أبا عامر عبد عمرو بن صيفى كان شديد العداوة للرسول وأصحابه.

وكان قد قدم المدينة وأتي الرسول (ﷺ) قبل أن يخرج إلى مكة فقال له:

– ما هذا الدين الذى جئت به..

قال: جئت بالحنفية دين إبراهيم..

قال: فأنا عليها..

فقال النبي: إنك لست عليها..

قال ابن صيفي: بلي.. إنك أدخلت عليها ما ليس فيها.

قال: ما فعلت ولكني جئت بها بيضاء نقية.

قال ابن صيفي معرضاً بالرسول (ﷺ): أي أنك جئت بها كذلك.

قال: أجل.. فمن كذب..

وفى ذلك يقول كعب بن مالك فى ابن صيفي:

معاذ الله من عمل خبيثٍ

كسعْيك فى العشيرة عبد عمروٍ

فإما قلت لى شرف ومالٌ

فقد ما بعت إيماناً بكفرِ

ويظل كعب بن مالك ينافح عن العقيدة.. مع حسان وابن رواحة ملتصقين بالرسول (ﷺ) يسجلون كل شئ.. ويردون على المشركين شعراً بشعر.. وبلاغة ببلاغة.

٣. عبد الله بن رواحة:

أسلم قبل أن يهاجر الرسول من مكة إلى المدينة.. وشهد العقبة الآخرة مع السبعين من الأنصار..وكان أحد النقباء الإثنى عشر.

وهو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس.. الأنصاري الخزرجي.. وكان من المعدودين الذين يعرفون الكتابة فى الجاهلية.. وكان يكتب بعد إسلامه للنبي (ﷺ).

عاد عبد الله إلى يثرب بعد أن بايع الرسول البيعة الكبرى.. وأخذت تتتابع هجرة الصحابة إلى يثرب قبل مجئ الرسول.. وكان عبد الله بين المستقبلين لهؤلاء المهاجرين من مكة والساهرين على راحتهم.

وحينما اقترب الرسول من يثرب خرج عبد الله بين عدد كبير من المسلمين يحملون سيوفهم ليكونوا فى استقبال القادم الكريم.. حتى إذا ظهر الرسول فوق ناقته (القصواء) لهج الجميع بأنشودة (طلع البدر علينا).

وحينما هم الرسول والمسلمون ببناء المسجد كان عبد الله يرتجز:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة

اللهم أرحم الأنصار والمهاجره

ويفصح ابن رواحة بحبه للرسول الكريم فى قوله:

وفينا رسول الله يتلو كتابه

إذا انشقَ معروفٌ من الفجر ساطعُ

يبيت يجافى جنبُه عن فراشه

إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا

به موقناتٌ أن ما قال واقعُ

وكان عبد الله بن رواحة أحد ثلاثة أمرهم الرسول بالرد على هجاء المشركين ويذكر له أنه أخذ بزمام ناقة الرسول (ﷺ) وهو داخل الحرم المكي.. فأنشد:

خلوا بنى الكفار عن سبيله

خلُوا.. فكلُ الخير فى رسولِه

قد أنزل الرحمن فى تنزيله

بأن خير القتل فى سبيلِه

يا رب إنى مؤمن بقيلهِ

أعرف حق الله فى قبولِه

اليوم نضربكم على تأويله

كما ضربناكم على تنزيلِه

ضرباً يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليلِه

حتى إذا بلغ الحرم قال له الرسول: إيها يا ابن رواحة.. قال: لا إله إلا الله وحده.. صدق وعده.. ونصر عبده.. وأعز جنده.. وهزم الأحزاب وحده.

فجعل ابن رواحة يقولها والناس من ورائه يرددونها فى حماس وقوة وفى حرب المسلمين مع الروم.. صارت الراية لابن رواحة الذى أمسكها فى شجاعة وكأنه يشم ريح الجنة فينشد:

أقسمت يا نفسُ لتنزلنَّهْ

لتنزلنّ َأو لتكرهنَّهْ

إن أجلب الناسُ وشدوا الرنهْ

مالى أراك تكرهين الجنة

يا نفس إلا تُقتلى تموتى

هذا حمامُ الموت قد صليتِ

وما تمنيت فقد أُعطيت

إن تفعلى فعلهما هُديتِ

وهو يقصد صاحبيه الشهيدين: زيد بن الحارثة وجعفر بن أبي طالب وقد سبقاه فى القتال والشهادة.

وكان الرسول يحث بن رواحة على قول الشعر.. وروي أن الرسول سأله يوماً: كيف تقول الشعر إذا أردت أن تقول:

فأجاب ابن رواحة: انظر فى ذاك ثم أقول – وأشار إلى وجه الرسول – ومضي ينشد على البديهة:

يا هاشم الخير إن الله فضلكم
على البرية فضلاً ما له غيَرُ
إنى تفرستُ فيك الخير أعرفُه
فراسة خالفتهم فى الذى نظروا
أنت الرسولُ فمن يُحرم نوافله
والوجه منه.. فقد أزرى به القَدرُ
ولو سألتُ أو استنصرت بعضهم
فى جُل أمرك ما ردُّوا ولا نصروا
فثبت الله ما آتاك من حسنٍ
تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا

فسر رسول الله (ﷺ) وقال له: وإياك فثبتُ الله !

وهكذا كان عبد الله بن رواحة محاربا بالسيف والشعر معاً.. جاعلاً من لسانه سيفاً يدافع به عن الإسلام والمسلمين حتى نال الشهادة.

★★★

ثالثا: شاعرات صحابيات:

يجدر بنا هنا أن نذكر طرفاً من أشعار النساء الشاعرات أيام الرسول وكيف كن يعبرن بأشعارهن – كذلك – عن العقيدة الجديدة ويدافعن عن الرسول والمسلمين [٣٠].

- فقد كان الرسول يستمع إلى (الخنساء) ويستزيدها بقوله: إيه يا خناس ويومئ بيده.. وقد عاشت حتى خلافة عمر وحضرت القادسية ودفعت أبناءها الأربعة حتى استشهدوا.. فقالت: الحمد لله الذى شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم فى مستقر رحمته.
- أما (صفية بن عبد المطلب) فهي عمة الرسول وشقيقة عمه حمزة وأم الصحابي الزبير بن العوام.. وكانت من الصحابيات السابقات إلى الإسلام.. شجاعة شاعرة فصيحة.

قتلت صفية الجاسوس اليهودي يوم أحد بعمود خاتلته به.. ومن شعرها:

ألا من مُبلغ عنى قريشاً

ففيم الأمرُ فينا والإمارُ

لنا السلف المقدم قد علمتمُ

ولم توقد لنا بالغدر نارُ

---

٣٠ - معجم الأديبات الشواعر - جمال الدين الحسينى تحقيق أحمد يوسف الرقاق - دار الثقافة العربية دمشق - وكذلك انظر: البيان المحمدي د. مصطفى الشكعة - الدار المصرية اللبنانية.

وكل مناقب الأخيار فينا

وبعض الأمر منقصةٌ وعارُ

وقالت ترثي أخيها حمزة حين استشهد فى أحد:

دعاه إله الحق ذو العرش دعوة

إلى جنةٍ يحيا بها .. وسرورِ

فذلك ما كنا نرجُّى ونرتجى

لحمزة يوم الحشرِ خير مصيرِ

فوالله لا أنساك ما هبت الصَّبا

بكاء وحزناً محضرى ومسيرى

على أسد الله الذى كان مدْرَها

يذود عن الإسلام كل كفورِ

وحينما مات الرسول (ﷺ) بكت وقالت:

فقدت أرضُنا هناك نبياً

كان يروى به النباتَ زكياً

خلقا عاليا ودينا كريماً

وصراطاً يهدى الأنامَ سوياً

obeikandl.com

وسراجاً يجلو الظلام مثيراً

ونبياً مسوداً عربياً

فعليك السلام منا جميعاً

دائم الدهر بكرة وعشياً

- وهذه (قتيلة بنت النضر بن الحارث) كان أبوها طبيب العرب.. حارب فى غزوة بدر مع قريش فأسره المسلمون وأمر الرسول بقتله فقتل..

قال التبريزى: كان النبي (ﷺ) قد تأذى مما قاله النضر فأمر بقتله.. وكان من جملة ما فعل أنه كان يقرأ الكتب فى أخبار العجم على العرب ويقول إن محمداً يأتيكم بأخبار عاد وثمود.. وأنا منبئكم بأخبار الأكاسرة والقياصرة - يريد بذلك الإساءة والقدح بنبوته - وكان إذا سمع القرآن أعرض ونأى بجانبه واستهزأ.. فلما أسر يوم بدر أمر الرسول علياً أن يضرب عنقه.. وعنق عقبة بن أبي مُعيط.

وهنا وجهت قتيلة ابنته خطابها إلى الرسول (ﷺ) وراثية أباها:

يا راكبا إن الأثيل مظنةٌ

من صبح خامسةٍ وأنت موفقُ[٣١]

٣١ - الأثيل: موضع قبر النضر وهو قرب المدينة.

أبلغ به ميتّاً بأن تحيةً

ما إن تزالُ بها النجائب تعتقُ[٣٢]

أمحمد يا خير صنو كريمةٍ

فى قومها والفحل فحلٌ مُعرقُ

ما كان ضرك لو مَنَنْتَ وربما

منَّ الفتى وهو المغيظُ المُحنَقُ

لو كنت قابل فدية لفديتُه

بأعز ما يفدى به من ينفقُ

فالنضر أقرب من أسرت قرابة

وأحقهم إن كان عتقٌ يُعتقُ

فلما سمع ذلك الرسول (ﷺ) رق لها وبكي وقال: لو جئتني من قبل لعفوت عنه.. ثم قال: لا تقتل قريش صبراً بعد هذا.

وبعد أن سمعت قول الرسول مدحته فقصيدة لم يعثر إلا على بيت واحد منها يقول:

الواهبُ الألفَ لا يبغى به بدلاً

إلا الإله ومعروفاً بما اصطنعا

---

٣٢ - النجائب: الإبل الكرام - تعتق: تسرع

obeikandl.com

وأسلمت قتيلة بعد مقتل أبيها.. وصارت من الصحابيات اللائي يروي عنهن الحديث النبوي.. وتوفيت فى خلافة عمر بن الخطاب.

— وهذه (الشيماء بنت الحارث) أخت النبي (ﷺ) من الرضاع.. وقد مر بنا كيف كانت ترقصه فى بادية بني سعد فى طفولته.. وكيف أن الرسول قد بسط لها رداءه يوم حنين.. وكانت بين السبايا.. وسمح لها أن تعود لقومها.. وأسلمت.

وكانت الشيماء ترتجل الشعر.. ويروي أن قومها أسروا يوم حنين، فبينما الرسول يميز الرجال من النساء.. وثبت الشيماء بين يديه وأنشدت:

امنن علينا رسول فى حرم

فإنك المرءُ نرجوه وننتظرُ

امنن على نسوة قد كنت ترضُعها

يا أرجح الناس حلماً حين يُختبرُ

أنا لنشكر للنعمى إذا كُفرت

وعندنا بعد هذا اليوم مدخرُ

وهذه (هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب) أسلمت بمكة فى فجر الدعوة.. وخاضت معارك الإسلام بشعرها.. وهجت كفار قريش.

ومن المواقف الرائعة.. أن هند بنت عتبة كانت وقفت فى أُحد على صخرة مشرفة تفتخر بقتل حمزة وغيره من المسلمين منشدة :

نحن جزيناكم بيوم بدْرِ

والحربُ بعد الحربِ ذات سُعْرِ

ما كان من عتبة لى من صبر

ولا أخى وعمه ... وبكْرى

شفيت نفسى وقضيتُ نذرى

شفيْتُ «وحشىٌ» غليلَ صدرى

فشكر «وحشىٍّ» علىَّ عمرى

حتى ترمَّ أعظمى فى قبرى

فأجابتها هند بنت أثاثة فقالت :

خُزيتِ فى بدرِ وبعد بدرِ

يا بنت وقاع عظيم الكُفرِ

صبَحك الله غداة الفجر

ملهما شمبين الطول الزهْرِ

بكل قطاع حسامٍ يفْرى

حمزةً ليْثى وعلىّ صقْرِى

obeikandl.com

إذ رام شيبٌ وأبوكِ غدْرى

مخضنبا منه ضواحى النحرِ

ونذرك السوء فشرّ نــذرِ

وهكـذا لم تتخلـف الشـاعرات علـى دخـول مجـال الشـعر والدعوة الإسـلامية والـذود عنهـا والمشـاركة فـى المعركة.

★★★

obeikandl.com

الصحابة والشعر

لم يكن الخلفاء الراشدون والصحابة بعيدين عن الشعر تذوقاً وإبداعاً وقولاً.. وجاء في البيان والتبين: وعامة أصحاب رسول الله (ﷺ) قد قالوا شعراً قليلاً أو كثيراً سمعوا.. واستنشدوا..

وسئل الحسن البصري: أكان أصحاب الرسول(ﷺ) يمزحون؟

قال: نعم.. ويتقارضون القريض – وهو الشعر –!

فأبو بكر الصديق كان يستنشد الشعر ويتذوقه.. ويبدي فيه آراء نقدية عجيبة ويستشهد به في خطبه..

ويروي صاحب السيرة له شعراً ثم يشكك فيه.. ومنه قوله:

ترى من لؤى فرقة لا يصدُّها

عن الكفر تذكيرٌ ولا بعثُ باعثِ

رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذبْوا

عليه.. وقالوا: لست فينا بماكث

ويروي عنه – رضي الله عنه – أنه كان يحب الحسن بن علي حباً شديداً.. وكان يحمله على عاتقه ويقول:

بأبى شبيهًا بالنبي

لست شبيهًا بعلى

وقال سعيد بن المسّيب: كان أبو بكر شاعراً وعمر شاعراً وعلى أشعر الثلاثة.. وهو يقصد أن كل واحد منهم لابد قد نظم بضعة أبيات فى مناسبات مختلفة.

أما عمر بن الخطاب فله مع الشعر والشعراء مواقف عديدة مشهورة له فيه وفيهم أقوال حكيمة..

ويروي أنه ربما سهر الليل كله يصغي إلى الشعر حتى إذا حان الفجر طلب تلاوة القرآن.

وكان يفضل زهير بن أبي سلمي ويقول عنه: كان لا يعاظل فى الكلام ويتجنب وحشي الشعر.. ولم يمدح أحداً إلا بما فيه.

وحينما سمع قول النابغة الذبياني:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة

وليس وراء الله للمرء مذهبُ

قال لوفد غطفان: هو أشعر شعرائكم.

وكتب إلى أبي موسي الأشعري – واليه على البصرة: مُرْ من قِبَلك بتعلم الشعر.. فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب.

وموقفه من الحطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر معروف.. فقد حبسه فاستعطفه بالشعر فأخرجه من السجن..

ومرة كتب له أحد الشعراء:

نحجٌّ إذا حجوا ونغزوا إذا غزوْا

فإنى لهم وفرٌ ولسنا بذى وفرِ

إذا التاجر الهندى جاء بفارةٍ

من المسْك راحت فى مفارقهم جرى

فدونك مال الله حيث وجدته

سيرضون - إن شاطرتهم - منك بالشطرِ

قال عمر: نشاطرهم أموالهم..

ويروي لعمر بعض الأبيات منها:

وهوِّن عليك فإن الأمور

بكفّ الإله مقاديرها

فليس بآتيك منهيّها

ولا قاصر عنك مأمورُها

ويروي العمدة مزيداً من شعره الذى ينسب إليه مثل:

توعـدني كـعـبٌ ثلاثـاً يعـدُّهـا

ولا شك أن القولَ ما قال لى كعبُ

ومـا بـى خـوف المـوتِ إنـى لمـيّـتٌ

ولكن خوفَ الذنبِ يتبعُـه الذنبُ

أمـا عثمـان بـن عفـان فقـد اختلفـت الآراء فـى حبـه للشعر.. لكـن المؤكـد أنـه كان يكـره فـى الشعراء الفحـش والهجـاء.. ومـن ذلـك حبسـه لشـاعر مـن بـني غالـب كان هجـا قومـاً هجـاء سـوء وفحـش فحبسـه حتـى مـات.

ويروي ابن رشيق لعثمان قوله:

غنى النفس يغنى النفس حتى يكفها

وإن عضّـهـا حتى يضـرّ بها الفقرُ

وما عُـسـرةٌ فـاصـبرْ لهـا إن لقيتَهـا

بـكـائنـــةٍ إلا ســـيتبعها يسْرُ

أمـا الإمـام علـى بـن طالـب.. فقـد جمـع لـه ديـوان مـن الشعر[٣٣] فـى أغـراض مختلفـة وكان المسلمون يعرفـون عنـه بلاغتـه وشـاعريته.. ويـروي أنـه حـين اشـتد هجـاء شـعراء المشركين للنـبي (ﷺ) وصحبـه.. ذهـب كثـير مـن المسلمين إلى علـى وقالـوا لـه: أهج

٣٣ - جمع وترتيب: عبد العزيز الكرم - المكتبة الشعبية - بيروت.

عنا القوم الذين يهجوننا.. فقال: إن عليا ليس عنده ما يراد لذلك – أي أنه تحرج من قول الهجاء خاصة فى قريش وهم قومه.

وكان يفضل امرأ القيس ويقول: كان أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة.. ويحسن بنا الآن أن نسوق طرفاً من أشعاره.

أنا أخو المصطفى لا شك فى نسبى

معه ربيتُ وسبطاه هما ولدِى

جدى وجدّ رسول الله متحِدٌ

وفاطم زوجتى لا قول ذى فنِد

صدَّقتُه وجميع الناس فى ظُلَمٍ

من الضلالةِ والإشراكِ والنكدِ

الحمد لله فرداً لا شريك له

البر بالعبد والباقى بلا أمِد

ويقول فى الحكمة:

لا تضع المعروف فى ساقطٍ

فذاك صنعٌ ساقطٌ ضائعُ

وضعُه فى حر كريم يكنْ

عرفُك مسكاً عرفْه ضائعُ

وفى غزوة أحد.. حزن حزناً شديداً على شهداء المسلمين.. فأنشد يقول:

الله حى قديم قادر صمَـــدُ

فليس يشركه فى ملكه أحدُ

هو الذى عرف الكفار منزلَهم

والمؤمنون سيجزيهم بما وعدوا

وينصر الله من والاه إن له

نصراً يمثل بالكفار إن وعدوا

فإن نطقتم بفخر لا أبا لكمُ

فيمن تضمَّن من إخواننا اللحدُ

فإن طلحةَ غادرناه منجدلاً

وللصفائح نارٌ بيننا تقدُ

ومن قتلتم على ما كان من عجب

منا فقد صادفوا خيراً وقد سعدوا

لهم جنان من الفردوس طيبةٌ

لا يعتريهم بها حـــر .. ولا صردُ

ليسوا كقتلى من الكفار أدخلهم

نار الجحيم على أبوابها الرصدُ

وعن نفسه يقول:

رضينا قسمةَ الجبار فينا

لنا علمٌ وللجهال مالُ

فإن المال يغنى عن قريبٍ

وإن العلم باقٍ لا يزالُ

وروي أن عمرو بن عبد ود نادي يوم الخندق: من يبارز.. فقام على فقال النبي له: اجلس إنه عمرو.. ثم كرر عمرو بن ود النداء وجعل يوبخ المسلمين ويقول: أين جنتكم التى تزعمون من قتل منكم دخلها.. ألا يبرز إلى رجل وأنشد عمرو:

ولقد بحُحتُ من النَدا

ءِ بجمعكم هل من مبارزْ

ووقفت إذ جبنُ الشجا

عُ بموقفٍ القِرن المُناجِزْ

إنى كذلك لم أزلْ

متسرعّا نحو الهزاهزْ

إن الـشجـاعـة والـسـما

حـــة فى التـى خـــير الـغـرائـــزْ

فبرز إليه على وهو يقول:

يـا عـمـرو ويحـك قـد أتا

ك مجيبُ صـوتـك غير عـاجـــزْ

ذونـــيـــةٍ وبـــصـــيـــرةٍ

والـصـدقُ مُـنـجـى كـــل فائزْ

إتـــى لأرجـــو أن أقـيـم

عـــليك نـــائحةَ الجـــــنـائزْ

من ضربة نجلاء يبقى

صـــــــيتهـا عـــند الهزاهزْ

وبارزه على وقتله.

ويذكر للحسن بن على – وقد خرج على أصحابه مختضبا:

نسوِّد أعلاها وتأبَى أصولها

فليت الذى يسودُ منها هو الأصلُ

يريـد هنـا أنـه يسـود أطـراف شـعر رأسـه والظاهـر منهـا الخضـاب.. ولكـن جـذور الشـعر تأبـي إلا البقـاء علـى الشـيب.

ومن شعر الحسين بن على وقد عاتبه الحسن فى امرأته:

لعـمرك إننى لأحــب داراً

تحــل بها سكـينةُ والربابُ

أحبهـا وأبذل جُــلَّ مــالى

وليس للائمى عندى عتابُ

وقبل أن يقتل فى كربلاء.. كان قد أحس بدنو أجله فأنشد يقول:

يا دهر أفٍّ لك من خلـيـل

كم لك بالإشراقِ والأصيلِ

من طالب أو صاحب قتيل

والــدهــر لا يقنع بالبديلِ

وإنـما الأمــر إلى الجـلـيـلِ

وكــل حــىّ سالك سبيلى

ومنقوش فى قبة الحسين بالقاهرة قوله:

خيرة الله مـن الخــلــقِ أبى

بعد جدى وأنا ابن الخيرتينْ

عبد الله.. غـلامٌـا ناشــئـاً

وقـريـشٍ يعبــدون الوثَنينْ

والــدى شـمـسٌ وأمــى قـمـرٌ

وأنا الــكــوكــبُ بين الـنيـريـنْ

وهـذا حمـزة بـن عبـد المطلـب يذكـر لقـاءه أبـا جهـل وأصحابـه فـى قصيـدة يقـول فيهـا:

فلما تراءينـا أنـاخـوا فـعـقـلـوا

مـطايـا وعقَّـلنا مدى غرض النِّبْلِ

وقلنا لهم: حبـل الإلـه نـصـيرُنـا

ومـا لـكـم إلا الضـلالـةَ من حبْلِ

فثار أبو جهلٍ هـنـالـك بـاغـيـاً

فـخـابَ .. وردَّ الله كـيد أبي جهلِ

وما نـحـن إلا فى ثـلاثين راكـبـاً

وهـم مائتـان بعد واحـدةٍ فضـلِ

ويرد عليه أبو جهل:

عجبتُ لأسباب الخطيئة والجهل

وللـشـاغبين بالخـلاف وبالبطْـلِ

أتونا بإفكٍ كى يضـلوا عـقـولناَ

وليس مضلاً إفكهم عقل ذى عقلِ

فقلنا لهم يا قومنا لا تخالفوا

على قومكم إن الخلافَ مدى الجهلِ

أما العباس بن أبي عبد المطلب فقد كان في الجاهلية رئيساً في قريش وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية في الجاهلية.. ثم كان من السابقين إلى الإسلام من الأنصار وتولي نصرة النبي (ﷺ) وبعد وفاة عمه أبي طالب.

شهد العباس مع النبي غزواته.. وفي غزوة تبوك المعرفة بغزوة العسرة.. قال العباس للنبي: إني أريد أن أمتدحك..

فقال له النبي: قل لا يفضض الله فاك..

فأشأ العباس يقول:

من قبلها طبت في الظلال وفي

مستودع لا يُخصف الورقُ

ثم هبطت البلادَ لا بشر

أنت ولا مضغةٌ ولا علقُ

بل نطفة تركب السفين وقد

ألجم نشْراً وأهلُه الغَرقُ

فأنت لما ولدت أشرقَت

الأرضُ وضاء بنورك الأفق

فنحن فى ذلك الضياء وفى النو

ر وسبْل الرشاد.. نخترقُ

ونلاحظ أن هذه الأبيات ترجمة شعرية للحديث الشريف الطويل الذى يقول: «كنت فى صلب آدم.. وركب بي سفينة نوح فأتيتُ من صلبه.. وقذف بي فى صلب إبراهيم. لم يلتق أبواي على سفاح قط..» الخ.

ويوم حنين أنشد مفاخراً بثبوته مع النبي (ﷺ):

ألا هل أتى عِرْسِى مكَرىِّ وموقعى

بوادى حنين والأسنةُ تُشرعُ

وقولى إذا ما النفس جاشت لها قَدى

وهامٌ تدهْدى والسَواعد تقطعُ

وكيف رددتُ الخيلَ وهى مغيرةٌ

بزوراء تُعطى باليدين وتمنعُ

نصرنا رسول الله فى الحرب سبعةٌ

وقد فر من قد فر عنه فأقشعُوا

أما عبد الله بن عباس رضي الله عنه.. فقد كان يحض الناس على الاستشهاد بالشعر بعد القرآن والحديث. وكان يقول الشعر. ومن ذلك قوله:

إذا طارقاتُ الهمّ ضاجعت الفتى

وأعمل فكَر الليل والليلُ عاكرُ

وباكرنى فى حاجةٍ لم يجد بها

سواى ولا من نكبة الدهر ناصرُ

فرجتُ بما لى همّه من مقامه

وزيله همّ طروقٌ مسامرُ

وكان له فضلٌ علىّ بظنَه

بى الخير.. إنى للذى ظن شاكرُ

ومن شعر جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين قوله يوم مؤتة وفيه قتل:

يا حبذا الجنةُ واقترابُها

طيبةٌ وباردٌ شرابُها

والروم روم قد دنا عذابُها

علىّ إذ لاقيتُها ضرابُها

تلك هي نماذج لموقف الصحابة من الشعر وكيف كانوا شعراء أيضاً يؤكدون قيمة هذا الفن.

★★★

شعراء الغزوات

لا يمكننا أن نحيط بما قيل فى الغزوات فى عهد الرسول من شعر سواء قاله المسلمون أم المشركون.

ومن ثم سوف نسوق هنا بعضاً منه مما جاء فى كتب السيرة والمراجع الأدبية وهى نماذج تؤكد حماسة الشعراء وذودهم عن الدعوة والقبول بالشهادة أو النصر.. وكان الرسول يستمع إلى هذه الأشعار ويحمد الله أن هيأ له هؤلاء الشعراء ينافحون معه عن الدين القويم.

ولأن غزوات الرسول وسراياه من الكثرة بمكان.. فإن الشعر الذى قيل فيها يكون ثروة أدبية إبداعية لها مذاق خاص..

وسوف نطوف بغزوتي بدر وأحد باعتبارهما نموذجين للنصر والهزيمة ونصاحب الشعراء الفرسان وغير الفرسان الذين جعلوا من الشعر سلاحاً فتاكاً يناظر السيف والرمح..

غزوة بدر:

وهـى واحـدة مـن أهـم غـزوات الرسـول (ﷺ) لأنهـا تمثـل أول انتصـار للمسـلمين علـى المشـركين. انتصـرت فيهـا القلـة المؤمنـة علـى الكثـرة الكافـرة.

يقول حسان فى ذلك من بين ما قاله وهو كثير:

لقد علمت قريشٌ يوم بدرٍ
غـداة الأسْـرِ والقـتلِ الشديدِ
بأنا حين تشتـجر الـعـوالى
حماةُ الحــرب يــوم أبِي الوليدِ
قتلنا ابنىْ ربيعة يوم سـارا
إلينا فــى مـضـاعفةِ الحــديدِ
وولت عند ذاك جموع فـهْرٍ
وأسلَمـهـا الحويرثُ من بعيدِ
وكل القوم قد ولَّوا جميعـاً
ولم يلْوَوْا على الحسِب التـلـيدِ

ويقول كعب بن مالك:

عــجبـتُ لأمر الله والله قــادرٌ
علــى ما أراد ليـس لله قــــاهرُ
قضى يوم بدرٍ أن نلاقىَ معــشراً
بغوْا وسـبيلُ البغى بالناس جائرُ
وفينا رسول الله والأوسُ حـوله
لــه معـقـل منــهم عزيزٌ وناصرُ
فــلما لقيناهم وكــل مــجاهدٌ
لأصحابه مستبْسلُ النـفس صابرُ
شــهدنا بـأن الله لا رب غــيرهُ
وأن رســولَ الله بالحــق ظـاهرُ
بهنّ أبــدنا جـمعهم فــتبددوا
وكـان يلاقى الحْين مـن هو فاجرُ
فكبّ أبـو جـهلِ صريعاً لوجهه
وعتبةُ قد غــادرنَهُ وهــو عائرُ

ويذكـر ابـن هشـام – مـترددًا – قصيـدة لحمـزة بـن عبـد المطلـب يقـول فيهـا:

ونحن تركنا عتبة الغى ثاوياً

وشيبة فى القتلى تجرجم فى الجفر[٣٤]

وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهم

فشقت جيوبُ النائحات على عمرو

أولئك قوم قُتلوا فى ضلالهم

وخلوا لواءً غير محتضر النصرِ

لواء ضلال قاد أبليسُ أهله

فخاس بهم إن الخبيث إلى غدرِ[٣٥]

وفينا جنودُ الله حين يمدّنا

بهم فى مقام ثم مستوضح الذِّكرِ

فشد بهم جبريلُ تحت لوائنا

لدى مأَزق فيه منا ياهمُ تجرى

فأجابه الحارث بن هشام بن المغيرة وقال:

ألا يالقومى للصبابة والهجرِ

وللحزن منى والحرارة فى الصدرِ

---

٣٤ - جرجم: سقط - الجفر: البئر المتسعة.

٣٥ - خاس: غدر

obeikandl.com

ولـلـدمـع مـن عينىّ جـودا كـأنـه
مزيـد هـوى من سلك فاطمة يجرى
على البطل الحلو الـشـمائل إذ ثـوى
رهــين مــقام للــركيّة مــن بدرِ
فإن يك قوم صـادفوا مـنـك دولـةً
فــلابد لـلأيام مــن دول الـدهـرِ

وقال عبد الله بن الزبعري السَّـهمي يبكي قتلي بدر من المشركين:

مــاذا عـلى بــدر ومــاذا حــولــه
مــن فــتيةٍ بيض الــوجــوه كـرامِ
تـركـوا نبيـهـا خـلـفـهـم ومنبـهاً
وابنـى ربيعـة خـبر خـصـم فـئـامِ
والحـارث الـفيـاضُ يبرق وجـهـه
كالــــبدر جــلى ليلـة الإظــــلامِ

فأجابه حسان بن ثابت:

مــاذا بــكيت به الــذين تتـابعوا
هــلا ذكــرتَ مـكـارمَ الأقــوامِ

وذكـــرت مـنـا مـاجـداً ذاهـمةٍ

سـمـح الخـلائق صادق الإقدامِ

أعنى النبى أخا المكـارم والنـدى

وأبَر مـن يـولى عـلـى الأقـسـامِ

فلمثلـه ولمـثـل مـا يـدعـو لـه

كـان الممـدح ثـم غير كهام[٣٦]

وكان عبيـدة بـن الحـارث بـن المطلـب قـد أصيـب يـوم بـدر وقطعـت رجلـه فـى مبـارزة وكان معـه فيهـا وحمـزة بـن عبـد المطلـب وعلـى بـن أبـي طالـب فـى مواجهـة المشـركين فقـال:

ستبلـغ عـنـا أهـل مـكـة وقـعـة

يهب لهـا مـن كـان عن ذاك نائباَ

فإن تقطـعـوا رجـلى فـإنى مسلمٌ

أرجّـى بها عـيـشـاً مـن الله دانياَ

مع الحور أمثال التماثيل أخلصت

مـع الجـنـة العليا لمن كان عالياَ

لقيناهم كالأسْـد تخـطـر بالقنا

نقاتل فى الرحمان من كان عاصياَ

٣٦ - الكهام: الضعيف

فما برحت أقدامنا من مقامنا

ثلاثتنا حتى أزيرو المنائياً[٣٧]

وقال ضرار بن الخطاب الفهري يرثي أبا جهل:

فبلغ قرشاً أن خير نديِّها

وأكرم من يمشى بساق على قدمْ

ثوى يوم بدر رهن خوصاء رهنها

كريم المساعى غير وغد ولا برمُ[٣٨]

فآليتُ لا تنهلُّ عينى بعبرة

على هالكِ بعد الرئيس أبى الحكمْ

ويروى فى هذه الغزوة أن برز عتبة وشيبة والوليد.. وبرز إليهم حمزة وعبيدة وعلى.. فقالوا: تكلموا نعرفكم..

فقال حمزة: أنا أسد الله وأسد رسول الله أنا حمزة بن عبد المطلب..

فقالوا: كفء كريم.

وقال على: أنا عبد الله وأخو رسول الله.

وقال عبيدة: أنا الذى فى الحلفاء.

---

٣٧ - المنائيا: المنايا - الموت

٣٨ - الخوصاء: البئر العميقة الضيقة - البرم: البخيل

obeikandl.com

فقال كل رجل إلى نظيره.. فقتل المسلمون المشركين وفى ذلك تقول هند بنت عتبة تبكي أباها:

أعينى جودى بدمع سرب

على خير خندف لم ينقلبْ

تداعى له رهطه غدوةً

بنو هاشم وبنو المطلبْ

يذيقونه حدّ أستيافهم

يعلّونه بعد ما قد عطبْ

يجرونه وعفير التراب

على وجهه عاريا قد سُلبْ

وكان لنا جبلاً راسيا

جميل المراة كثير العشُبْ

ونذرت هند أن تأكل كبد حمزة

ومما روي كذلك أن عمير بن الحمام الأنصاري كان فى فمه تمرة يأكلها حين سمع رسول الله يقول: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض.. فقال: نعم بخ بخ.. وأخرج التمرة من فمه وذهب يقاتل منشداً:

ركـضا إلـى الله بغير زاد

إلا التـقى وعـمـل المعادِ

والصبرُ فى الله على الجهاد

وكـل زادٍ عرضـة النفـادِ

غير التقى والبر والرشـادِ

ومـن يقـرأ حسـان وكعـب يقـف علـى قصائـد كثـيرة قيلـت فـى غـزوة بـدر تمجـد نصـر المسـلمين.. وتشـيد بالعقيـدة وتهجـو المشـركين والقتلـي مـن زعمائهـم الذيـن يعـادون الإسـلام.

وقـد قصدنـا هنـا أن نقـف بالقـارئ علـى بعـض ملامـح السـاحة الشـعرية التـى قاتلـت وانتصـرت إلى جانـب السـاحة القتاليـة بالسـيف والدمـاء..

غزوة أحد:

اسـتعد المشـركون للأخـذ بثـأر قتلاهـم فـى بـدر.. فكانـت غـزوة أحـد.. وكانـت هنـد بنـت عتبـة تقـود النسـوة وهـن يضربـن الدفـوف خلـف الرجـال ويحرضنهـم علـى القتـال وتقـول:

ويها بنى عبد الـدار

ويها حمـاة الأدبـار

ضـربـاً بـكـل بتار

وتقول:

إن تـقبـلـوا نعـانقْ

ونـفـرش الـنمارقْ

أو تـدبروا نـفـارقْ

فــراق غـير وامـقْ

وكان شعار المسلمين يوم أحد: أمت أمت..

واستشـهد يـوم أحـد حمـزة ومصعـب بـن عمـير وحنظلـة بـن أبي عامـر.. وعمـرو بـن الجمـوح وأصيـب عبـد الرحمـن بـن عـوف.. كمـا أصيـب الرسـول (ﷺ) نفسـه..

ووما قاله شداد بن الأسود فى قتل حنظلة:

لأحـمـيـنَّ صـاحـبـى ونـفـسـى

بـطـعـنـةٍ مثـل شعاع الشمس

ويقول أبو سفيان ذاكراً كيف كان صابراً على القتال:

وسلى الذى قد كان فى النفس أننى

قـتـلتُ من النجار كل نجيبِ

ومن هاشم قرْماً كـريماً ومصـعـباً

وكان لدى الهيجاء غير هيوب

obeikandl.com

ولو أننى لم أشف نفسى منـــهـمُ
لكانت شجا فى القلبِ ذات ندوبِ

فيرد عليه حسان بن ثابت:

ذكرتَ القروم السُّود من آل هاشمٍ
ولـسـتَ لـزور قـلـتَـه بمـصـيبِ
أتعجبُ إن أقصدت حمزة مـنـهـم
نـجـيـبـا وقـــد سـمـيتـه بنجـيـبِ
ألم يـقـتـلـوا عمراً وعـتـبـة وابـنـه
وشـيـبـة والحـجـاجَ وابـن حبيبِ
غداة دعا العاصـيِ عـلـيـاً فـراعـه
بضـربـة عـضـبِ بـلـه بخضـيـبِ

ويقول حسان كذلك فى قتل أبي بن خلف:

لـقـد ورث الـضـلالـة عـن أبـيـه
أبـىّ يـــوم بـــارزه الـــرســـولُ
أتـيـت إلـيـه تحـمـل رمّ عـظـمٍ
وتـــوعـــده وأنـت بـــه جـــهـــولُ

وحينما لاكت هند كبد حمزة أنشدت شعراً كثيراً منه:

شفيت مـن حمزة نـفـسى بـأحُـدْ

حين بـقـرتُ بـطـنـه عـن الكبَدْ

أذهب عنى ذاك مـا كـنـتُ أجـدْ

من لـذعـة الحزن الشديد المعتمدْ

وهذا الشاعر المشرك هبيرة بن أبي وهب يقول شامتاً:

سقنا كنانة من أطـراف ذى يمن

عـرض البلاد على ما كان يزجيها

نحن الفوراسُ يوم الجرّ من أُحد

هـابـت مـعدّ فقـلنا نـحن نأتيها

هابوا ضراباً وطعنا صادقاً خذماً

مما يرون وقد ضمت قواصيها[٣٩]

ولم يتركه حسان بن ثابت بل رد قوله بقوله:

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكـم

إلى الـرسـول فـجـنـد الله مخزيها

---

٣٩ - الجر: أصل الجبل - الخذم: المذل - قواصيها: البعيد من الأرض

أورثتموها حياض الموت ضاحيةً

فـالنار موعدها.. والقتل لاقيها

كـم مـن أسـير فكـكناه بـلا ثمن

وجـــز ناصـيـة كـــنا مواليها

وكذلك رد كعب بن مالك بقصيدة طويلة منها:

ولكن ببدر سائلـوا من لـقـيـتـمُ

من الناس والأبناء بالغيب تنفعُ

وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها

سـوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا

نجالد لا تبقى عـلـيـنـا قـبـيـلـةٌ

من الناس إلا أن يهابوا ويفظعوا

وبكى كعب بن مالك حمزة بن عبد المطلب وقتلي أحد في قصيدة يقول فيها:

فـكـلـهـمُ مـات حـر الـبـلاءِ

عـلـى مـلـة الله لم يحـرجِ

كـحـمـزة لما وفى صـادقـاً

بـذى هبَّة صـارم سـلججِ

ونعمان أوفى بميثاقه

وحنظلة الخير لم يجنح[٤٠]

فأجاب ضرار بن الخطاب الفهري شامتاً:

أيجزع كعب لأشياعه

ويبكى من الزمن الأعرجِ

فقولا لكعب يثنى البكاء

وللنئ من لحمه ينضج

لمصرع إخوانه فى مكرّ

من الخيل ذى قَسطل مرهج[٤١]

وذكرت أشعار كثيرة لعبد الله بن الزبعري.. وعمرو بن العاص (وكان لا يزال فى صفوف المشركين) وغيرهم.. وكان حسان وكعب لهم بالمرصاد.

ويروي ابن هشام عن الحجاج بن علاط السلمي ذلك الفارس المسلم يمدح على بن أبي طالب حين قتل أبا طلحة بن عبد العزي صاحب لواء المشركين يوم أحد فأنشد:

لله أي مذبب عن حرمةٍ

أعنى ابن فاطمة المعمَّ المخولاَ

٤٠ - ذى هبة: أي سريع بالسيف - سلجج: مرهف

٤١ - القسطل: البغبار - المرهج: المرتفع.

سبقت يداك له بعاجل طـعـنـةٍ

تركـت طليحة للجبين مجندلاَ

وشددت شدة باسل فكشفتهم

بالجـر إذ يهوون أخـول أخولاَ

كما بكي ابن رواحة حمزة بقوله:

بكت عينى وحـق لهـا بكـاهـا

ومـا يغـنى البـكاءُ ولا العويلُ

عـلى أسـد الإلـه غـداة قـالـوا

أحمـزة ذاكـم الـرجـل القتـيلُ

أصـيب المسـلـمـون به جميـعـاً

هنـاك وقـد أصيب به الرسولُ

وبكت حمزة أختُه صفية بن عبد المطلب بقولها:

فوالله لا أنساك ما هبت الصـبا

بكاء وحزنا محضري ومسيرى

على أسد الله الذى كان مـدرهاً

يذود عن الإســلام كُل كفورِ

فياليت شلوى عند ذاك وأعظمى

لـدى أضبع تعتـادني ونسـورِ

أقـول وقد أعلى النعيُّ عـشـيرتى

جزى الله خيراً من أخٍ ونصيرِ

★★★

لقد أردنا هنا أن نسوق طرفاً مما كان يقال فى الغزوات من الشعر سواء قاله المسلمون أو المشركون.. وقد أفرد ابن هاشم فى سيرته.. وكذلك ابن كثير فى (البداية والنهاية) – وأخبار الصحابة فى سيرهم.. ما يملأ صفحات وصفحات حيث كان لكل غزوة شعرها الذى لهج به الشعراء يتقارعون به وكأنهم يتقارعون بالسيوف.. ويفصلون أحداث كل غزوة ومن قتل فيها ويرثون ويهجون ويمدحون ويفاخرون.. بما يعد ديواناً كبيراً يمكن أن يجمع على حدة..

ومن ثم رأينا أن نكتفي هنا بغزوتي بدر وأُحد دليلاً على دور الشعراء فى التعبير عن الأحداث والانتصارات والهزائم.. ومؤكدين كيف كان للشعر دوره الخلاق فى التسجيل والإشادة والذب عن الحق أو الباطل على ألسنة الشعراء من الطرفين.

obeikandl.com

خاتمة

إن موضوع هذا البحث يمكن أن يكون ضعف هذه الأوراق أو أكثر لو نظرنا نظرة شمولية.. لكننا رأينا أن نقدم ما يؤكد علاقة الشعراء بالدعوة الإسلامية وموقف الرسول (ﷺ) من الشعر والشعراء.. ثم نرحل بعد تأكيد هذه النظرة في قلب المجتمع الإسلامي حيث بدأ المشهد الشعري تتكون ملامحه – كما رأينا في طوائف من الشعراء المسلمين: شعراء مخضرمون – وشعراء وقفوا لى جانب الرسول في دعوته.. وشعراء عبروا عن النصر والهزيمة وإن اختلط بهم شعراء من الطائفتين السابقتين.

وهى رحلة رجعنا فيها لأوثق المصادر.. وعلقنا بآرائنا على هذه المصادر في مكانها.. وتمنينا طيلة مسيرتنا أن يعيش معنا القارئ دور الشعر والشعراء في الدفاع عن الإسلام إلى جانب السيف البتار في أيدي الفرسان.

والله الموفق

أحمد سوبلم

obeikandl.com

أهم المراجع والمصادر

١. السيرة النبوية: لابن هشام، ٤ج – تحقيق لجنة من العلماء ١٩٦١ – مطبعة الأنوار المحمدية.

٢. العمدة: لابن رشيق – تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٨١ – دار الجبل.

٣. تاريخ الصحابة والتابعين: د. حمزة النشرتي وآخرون ٤ج – ١٩٩٨.

٤. الشعر والشعراء: لابن قتيبة – تحقيق أحمد محمد شاكر ١٩٨٢ – دار المعارف.

٥. البداية والنهاية: لابن كثير – ١٩٦٦– مكتبة المعارف بيروت.

٦. الأغاني للأصفهاني – تحقيق إبراهيم الأبياري١٩٧٠– دار الشعب.

٧. البيان المحمدي: د. مصطفى الشكعة ١٩٩٥– الدار المصرية اللبنانية.

٨. رحلة الشعر: د. مصطفى الشكعة ١٩٩٧ – الدار المصرية اللبنانية.

٩. العصر الإسلامي: د. شوقي ضيف ١٩٩٥ – دار المعارف.

obeikandi.com

١٠. الحياة الأدبية فى عصر النبوة والخلافة: النبوي شعلان ١٩٩٨ دار قباء.

١١. غزوات الرسول بين شعراء الشعوب الإسلامية: د. حسين مجيب المصري ٢٠٠٠ – الدار الثقافية للنشر.

١٢. الإسلام والشعر: د. سامى العاني – عالم المعرفة الكويت ١٩٨٣.

١٣. الإسلام والشعر دراسة موضوعية: د. إخلاص فخري ١٩٩٢ – مكتبة الآداب.

١٤. شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام: د. النعمان القاضي ١٩٦٥ – الدار القومية للطباعة والنشر.

١٥. حسان بن ثابت: د. محمود طاهر درويش ١٩٧٧ – دار المعارف.

١٦. ديوان حسان بن ثابت: د. سيد حنفي حسين ١٩٨٣ – دار المعارف.

١٧. الإعلام الشعري فى التراث العربي: أحمد سويلم ١٩٩٥ – الهيئة العامة للكتاب.

١٨. نظرات فى الشعر الإسلامي والأموي: ظافر القاسمي ١٩٧٧ – دار النفائس بيروت.

١٩. الهجاء: د. سامي الدهان ١٩٥٧ – دار المعارف.

٢٠. المدح: د. سامي الدهان ١٩٨٠ – دار المعارف.

٢١. دواوين الشعراء ورددت أسماؤهم فى البحث.

فهرس

قبل أن تقـرأ.....٣
العرب والشـعر.....٧
الرسـول والشـعر.....١٢
- مـا قبـل البعثـة.....١٣
- بعثة الرسـول.....١٩
- موقـف الرسـول مـن الشـعر والشـعراء.....٣٣
المشهد الشـعري فى صدر الإسـلام.....٤٩
- لشـعراء المخضرمون.....٥٢
- لبيـد بـن ربيعـة.....٥٣
- الحطيئة.....٦٠
- العبـاس بـن مـرداس.....٦٣
- كعـب بـن زهـير.....٦٧
- النابغة الجعـدي.....٧٠
- حميـد بـن ثـور الهـلالي.....٧٣

obeikandl.com

- شعراء الدعوة الإسلامية.....٧٧
- حسان بن ثابت.....٧٧
- كعب بن مالك الأنصاري.....٩٢
- عبد الله بن رواحة.....٩٦
- شاعرات صحابيات.....١٠٠
الصحابة والشعر.....١٠٧
شعراء الغزوات.....١٢٠
- غزوة بدر.....١٢١
- غزوة أحد.....١٢٨
خاتمة.....١٣٧
أهم المراجع والمصادر.....١٣٩

obeikandl.com